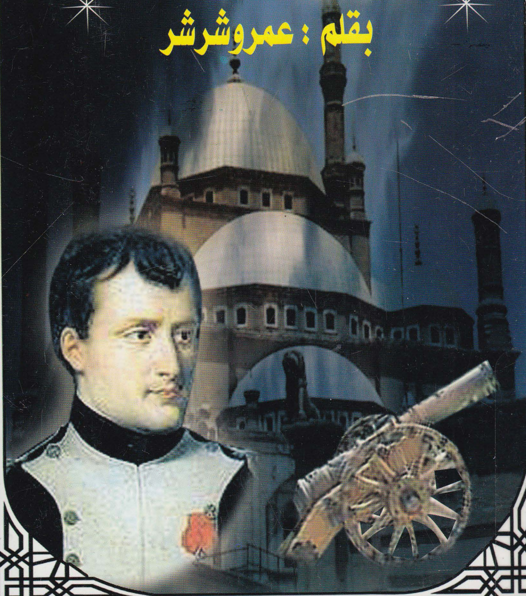
بونابرت والشرق

رؤية تحليلية للأحداث

بقلم : عمرو شرشر



بونابرت والشرق

رؤية تحليلية للأحداث

بقلم: عمرو شرشر



تصميم الغلاف الفنان :أحمد راشد



الإهداء

إلى من رباني صغيرا ورعاني كبيرا

إلى والدي العزيز محمود شر شر ذلك المربى الفاضل والذي حمل على عاتقه نشر راية العلم والمعرفة من خلال رحلة عطاء طويلة ومتميزة في مجال التربية والتعليم وذلك منذ أن كان معلما وحتى صار مديرا للتعليم الابتدائي بالباجور والذي يكن له الجميع كل احترام وتقدير نتيجة لبصماته التي تركها شاهدة إلى الأبد على نبض وحيوية أعماله سواء في مجال التعليم العام أو الخاص.

شكر وتقدير

.أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الفاضل أيمن غراب مدير المركز الالكتروني(قطاع الفنون التشكيلية) ذلك الرجل صاحب الأخلاق والمبادىء والقيم النبيلة والشغوف دائما ودوما بالحركة الفكرية والثقافية في مصر والعالم العربي ولا عجب في ذلك لأنه الرجل الذي وجد ذاته في القراءة ووهب حياته للمعرفة وتعلق وجدانه بالثقافة٠

عمرو شرشر

.كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الفاضل محمد شاكر الجندي(قسم الوثائق والمكتبات) ذلك الإنسان النبيل والصديق المخلص والذي لم يتوان لحظة عن تقديم خدماته وآرائه البناءة إيمانا منه بضرورة نشر الثقافة والمعرفة في كل مكان وزمان٠

عمرو شرشر

شكر وتقدير

- أتقدم بخالص الشكر والتقدير للسيدة الفاضلة سلوى حمدي على كل ما قدمته من إنجازات إعلامية وثقافية خلال فترة عملها بقصر الفنون ونتمنى لها المزيد من العطاء الدائم والمستمر في نشر الإبداع الفني والفكري والثقافي بقطاع الفنون التشكيلية٠

عمرو شرشر

- كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذ الفاضل عبد الرحمن البجاوي(عضو اتحاد كتاب مصر) وصاحب السيرة الذاتية العطرة والتي فاح عطرها وتعدت حدود بلده البتانون لتشمل أرجاء محافظته المنوفية بأسرها ولا عجب في ذلك فهو فارس الكلمة الحرة والعطاء الأدبي المتميز والذي قصد به نشر الثقافة الفكرية والأدبية إيمانا منه بدور الأدب في التعبير عن قضايا المجتمع المختلفة أصدق تعبير في كل العصور وعلى مر الزمان٠

عمرو شرشر



المؤلف في سطور

- مواليد سروهيت بمحافظة المنوفية ١٩٧٣م
- ليسانس آداب لغة عربية (جامعة الإسكندرية ١٩٩٦م)

أولا(في مجال الصحافة والأدب):-

- مراسل صحفي بجريدة الوقائع العربية ٢٠٠٤م
حيث كتب العديد من المقالات والموضوعات الأدبية والسياسية والاجتماعية.
- له مقاله الشهير(بغداد يا عرب بغداد) في جريدة النهار المصرية ٢٠٠٧م
- له العديد من القصائد الأدبية الإبداعية بأغراضها الشعرية المتنوعة.
- مؤلف كتاب (دنشواى والتاريخ) برؤيته النقدية التحليلية للأحداث.
- مؤلف الكتاب الحالي(بونابرت والشرق) برؤيته التحليلية للأحداث.

ثانيا(في مجال وزارة الثقافة- قطاع الفنون التشكيلية

- معد للندوات الثقافية بمركز سعد زغلول الثقافي ٢٠٠٢م
- عضو بالنشاط الثقافي بمتحف دنشواى في فبراير ٢٠٠٣م
- مسئول النشاط الثقافي بمتحف دنشواى في أكتوبر ٢٠٠٣م
- مشرف عام على الإدارة بالفترة المسائية بمتحف دنشواى ٢٠٠٩م

ثالثا(في مجال التعليم الخاص):-

- له خبرة طويلة في مجال التعليم الخاص حيث عمل(مدرسا- مدرسا أول - مشرفا عاما) لمادة اللغة العربية بمدارس القدس الخاصة بالباجور.
- حصد العديد من شهادات التقدير والجوائز المالية تقديرًا لكفاءته ونتائجه المرموقة وإخلاصه في العمل.

e-mail:amr_sharshar@ymail.com
موبايل :(٠١٢٤٢٧٦١٨٤ -٠١٤٩٨٣١٥٦٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بونابرت والشرق

ـ السادة الدارسون وجميع المحبين والمهتمين بالناحية الثقافية والسياسية والتاريخية أقدم لحضراتكم كتابي هذا بونابرت والشرق راجيًا من المولى عز وجل أن يكون خير مرشد ومعين في معرفة حقبة هامة من تاريخ مصرنا الحبيبة تلك الحقبة المليئة بالأحداث السياسية والتاريخية والتي يجب على كل مصري معرفتها والإطلاع عليها ليعرف أساليب المستعمر وفظاعته والحقيقة أن كتابي هذا الذي بين أيديكم ليس وليد التو أو اللحظة وإنما هو وليد أشهر متواصلة بذلتُ فيها مجهودًا مضنيًا واصلا الليل بالنهار في الإطلاع على العديد من المصادر والمراجع من أجل إخراجه بالصورة المفيدة للسادة القراء وعزائي الوحيد في تعبي ومجهودي المضني هو أن يحقق هذا الكتاب النفع والفائدة المرجوة منه لأن السعادة الحقيقية للكاتب أو المؤلف تكمن في تقديم ونشر أعماله الهادفة والبناءة للآخرين هذا وقد راعيتُ فيه السهولة والوضوح والبعد عن التعقيد والغموض إلى جانب صياغته وعرضه بإسلوب شيق جذاب مراعيًا التسلسل الزمني للأحداث ومبديًا تعليقي على الأحداث التي يجب ألا تمر مرور الكرام لأنني لا أحب أن أقوم بتسجيل الأحداث بقدر ما أحب أن أكون معلقا عليها ومحللا لها شارحًا أبعادها وتطوراتها إيمانا منى بأن المؤلف أو الكاتب ينبغي أن يترك لمساته وبصماته شاهدة على نبض وحيوية أعماله بعيدًا عن الجمود أو التعقيد الذي لا يفيد.

ـ هذا ويعتبر كتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي والـذي عاصـر أحـداث الحملـة الفرنسية على مصر مرجعًا أساسيًا لتلك الفترة الهامة حيث اتسم الجبرتي بالوعي القومي والموضوعية في تتبعه لتلـك الفتـرة الهامة من تاريخ مصر والوطن العربي هذا وقد ولد عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي بالقاهرة سنة ١٧٥٦ وقد جاءت أسرته من قرية جبرت قرب ميناء زيلع على البحر الأحمر وهي منطقة كانت تابعة لنجاشي الحبشة وعرفـت بـالتقوى البالغـة لسكانها وفي نهاية القرن السادس عشر الميلادي هـاجر جـده السابع ليصبح شيخًا لرواق الجبرتية بـالأزهر الشـريف وهـو منصب كان ينتقل في ذلك الوقت من الأب إلى الابن ولقـد كـان معلم عبد الرحمن الجبرتي الأول هو والده حسن الدين برهـان الذي كان مرجعه الأول في تعلم الحساب وعلم الفلـك والتقـويم وغيرهم من العلوم وتكمن قيمة الجبرتـي فـي كونـه شـديد الملاحظة لكل الأحداث التي حدثت في مصر أثنـاء فتـرة حكـم المماليك والعثمانيين وأيضًا سنوات الحملة الفرنسية حيث ألقـى الضوء على أحرج فترة في تاريخ مصر والتي فيهـا تأسسـت قواعد كثيرة من الفكر المصري وأوجه متعددة مـن الشخصـية المصرية هذا ولم يكن الجبرتي من نوعيـة المـؤرخين الـذين يحرصون على إرضاء الوالي لكنه كان من مدوني الأحداث بدقة وبأمانه دون أن يخاف القائد لذلك بعد وفاته في عام ١٨٢٥ أمر محمد على بأن يتم حرق مكتبته وأمهات كتبه ومؤلفاته وقد ترك لنا عبد الرحمن الجبرتي مؤلفين هـامين الأول هـو "عجائـب الآثار في التراجم والأخبار"أما المؤلـف الثـاني فهـو "مظهـر التقديس بزوال دولة الفرنسيس".

ـ والحقيقة أعزائي القراء هي أن الأيام تمر وتتبعها السـنون إلا أن ذاكرة التاريخ تبقى شاهدة على أحداث جسام وقادة عظام فرضوا أنفسهم فرضا على مجريات الأحداث ومن هؤلاء القـادة نابليون بونابرت ذلك الرجل الذي دافع عـن الثـورة الفرنسـية

واستطاع أن يحقق لها الانتصار تلو الآخر على أعدائها في الداخل والخارج إلا أن زهو وبريق هذه الانتصارات كان له وقع السحر عليه حيث جعله يسبح بخياله بعيدا وراء طموحاته وأطماعه الشخصية في تكوين مجدا وإمبراطورية لنفسه وتشاء الأقدار أن تلتقي طموحاته ومصلحته الشخصية مع مصلحة وطنه فرنسا عند أبواب مصر العاصمة الطبيعية للأمة العربية كما كان يطلق عليها والتي ستكون السيطرة عليها ضربة في الصميم ضد مصالح بريطانيا في الهند بعدما عجزت فرنسا عن غزوها في عقر دارها بسبب موقعها المتميز وقوة أسطولها البحري وينجح نابليون في تهيئة الحكومة الفرنسية (الديركتوار) لقبول فكرته بغزو مصر تحت ذريعة المصلحة الفرنسية هذا بالطبع إلى جانب أطماعه وأحلامه الشخصية تلك الأحلام التي سيطرت وسادت عقل الرجل وكيانه ألا وهى تكوين إمبراطورية فرنسية في الشرق والتي ستكون نواتها مصر والتي سينطلق منها إلى الشام ثم الانقضاض على الدولة العثمانية والاستيلاء عليها ثم السيطرة على أوروبا الشرقية وتحقيق حلمه في السيطرة على الشرق والغرب كالاسكندر المقدوني والحقيقة التي يجب ذكرها هنا هي أن السيطرة الفرنسية على مصر (درة الشرق) كانت كفيلة بتهديد مصالح انجلترا في الهند وهو الغرض الرئيسي للحملة الفرنسية إلا أنها لم تكن كافية لتحقيق أطماع نابليون الشخصية في الاستيلاء على الشرق لذا فقد اتبع الرجل سياسة التودد والتقرب إلى المصريين بادئا بإعلان إسلامه وصداقته للسلطان العثماني وعداوته للمماليك الذين أذاقوا الشعب المصري الهوان وعبثوا بمصالح التجار الفرنسيين وإعلانه احترامه للعادات والتقاليد الإسلامية ومشاركته في المناسبات والمواسم الدينية كشهر رمضان المبارك والمولد النبوي الشريف وغيرهما فنابليون بلا شك كان يدرك قواعد اللعبة جيدا ومن خلال ذلك كان يتعامل جيدا مع الشعوب الخاضعة له ولا عجب في ذلك لأنه القائل"(لقد حكمت شعبا

مسلما فادعيت الإسلام وحكمت شعوبا مسيحية فانتحلت الكثلكة ولو حكمت شعبا يهوديا لأعدت بناء هيكل سليمان)" كما انتهز الرجل فرصة اتجاه الأتراك لمهاجمة مصر بجيشين ليتعجل بالمبادرة في الهجوم من أجل تحقيق أحلامه التوسعية في السيطرة على الشرق تلك الأحلام التي أجلها إلى حين استقرار أوضاع وظروف الحملة في مصر التي كانت تموج بالثورات والمقاومة ضد الحملة وهو ما أكده ريبو أحد مؤرخو الحملة الفرنسية حيث قال:"(كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض غرامات على البلاد ولكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ٠٠)" ثم يزحف بونابرت إلى الشام والتي في طريقه إليها ارتكب مجزة بشعة ستظل وصمة عار على جبين تاريخه العسكري ألا وهى مذبحة يافا البشرية والتي قتل وأعدم فيها آلاف الأبرياء الذين أمّنهم على أرواحهم في رسالة قصد منها بث الرعب وإشاعة الهلع لكي لا تقوم المدن الأخرى بمقاومته وبالتحديد عكا الصامدة والتي كان غدر نابليون بيافا أحد الأسباب الهامة التي جعلت حاميتها يستميتون في الدفاع عنها على عكس ما توقع نابليون بل وإن العناية الإلهية قد انتقمت لضحايا يافا حيث أن تفسخ جثثهم قد أدى إلى انتشار مرض الطاعون ذلك الوباء الخطير الذي فتك بالفرنسيين الذين كانوا يحاصرون عكا فتكا ليكون سببا آخر مهما من أسباب فشل نابليون في الاستيلاء على عكا لتتبخر أحلامه وأطماعه عند أسوارها المنيعة وبفضل الجزار ورجاله ولتبقى مقولته المشهورة مدوّنة على صفحات التاريخ: (لقد أنستني عكا عظمتي لو سقطت عكا لغيرت وجه العالم فقد كان حظ الشرق محصورًا في هذه المدينة الصغيرة) ليعود نابليون إلى مصر حزينا ومنها يرحل سرا إلى فرنسا بسبب تردى الأوضاع هناك وذلك بعد أن يترك الحملة وظروفها الصعبة تحت قيادة الجنرال

كليبر وهناك في فرنسا يقود نـــابليون انقلابـــا ضـــد الحكومـــة الفرنسية ليصبح قنصل فرنسا الأول ثم إمبراطـــورا عليهـــا ثـــم يخوض الرجل حروبه النابليونية ويحقق انتصارات ساحقة على أعدائه ولكنها لا تدوم حيث كانت نهايته المأساوية في معركـــة واترلو ١٨١٥م والتي انهزم فيها انهزاما ساحقا لتنتهي أحـــداث الرجل المأساوية بالنفي إلى جزيرة القديسة هيلانة المســـتعمرة البريطانية ثم الموت فيها بمرض السرطان ١٨٢١م ولكن وعلى الرغم من كثرة أعداء هذا الرجل في ذلك الوقت والـــذين كـــانوا يكرهونه بشدة إلا أنهم كانوا يكنون له عظيم الاحتـــرام فعنـــدما سئل أمير البحر الدوق ويلينغتون قائد الإنجليز في معركة واترلو الشهيرة عن أعظم جنرال في وقته قال:(إن أعظمهم في الماضي والحاضر والمستقبل وكل وقت هو نابليون بونابرت) والله ولـــي التوفيق.

عمرو شرشر

الثورة الفرنسية

١٤تموز(يوليو)١٧٨٩م

سقوط الباستيل

ـ لقد كان الاسم الأصلي للباستيل حين بنى هو "الباستيد" أي الحصن باللغة الفرنسية وكان الملك بحاجة إلى أموال لبناء هذا الحصن فاعترض على ذلك نقيب التجار واسمه آتيين مارسيل وكان أغنى رجل في باريس مما جعل بعض المؤرخين يصفون هذا الرجل بأنه أب من آباء الديمقراطية لوقوفه في وجه الملك.

ـ وقد اغتيل آتيين مارسيل عام ١٣٥٨ عند باب سانت أنطوان حيث أقيمت قلعة الباستيل والتي صارت سجنا للمعارضين السياسيين هذا وقد بلغ عدد سجناء الباستيل منذ بنائه وحتى سقوطه ١٤٠٠ سجين وكان أول سجنائه المدنيين اثنان من السحرة جيء بهما ليعالجا الملك من مرض نفسي ولكنهما فشلا وكان ذلك في عام ١٤٢٣م.

ـ هذا وقد أوضح المفكر المصري لويس عوض في كتابه (الثورة الفرنسية) الأصل في الباستيل وهو أنه كان حصنا للدفاع عن باريس من الشرق كما أوضح أن الصورة التقليدية عن الباستيل حتى قبل سقوطه في يد الثوار أنه لم يكن حصنا للدفاع بقدر ما كان قلعة للطغيان وسجنا جهنميا للتعذيب ولهذا فقد اتخذت فرنسا من سقوطه عيدا قوميا للحرية فيها وكان من أشهر الأدباء والمفكرين الذين دخلوا الباستيل (فولتير) مرتين وعندما أفرج عنه عام١٧١٧م بعد سجنه في المرة الأولى لمدة أحد عشر شهرا حددت إقامته عند أبيه في منزله الريفي فكتب

للوصي على العرش يقول مداعبا" (إني أشكر لك يا صاحب السمو الملكي رغبتك في أن تتكفل بمأكلي ولكني أرجوك ألا تتكفل بمسكني)".

ـ ويذكر المؤرخون أنه حينما تحول من قلعة إلي سجن ملكي أصبح تابعا للملك مباشرة ينفق عليه من أمواله الخاصة وكان كل ما يجرى بداخله لا يتعرض للرقابة القانونية ولم تكن تجري فيه أحكام الإعدام وإنما كان محطة للتحقيق والمحاكمة وبدءا من عام ١٦٥٩م بدأ الباستيل يحفظ سجلات منتظمة لسجنائه.

ـ هذا وقد قضت الثورة الفرنسية على الملكية وأعلنت نظام الجمهورية وهددت باقي الملكيات الأخرى في دول أوروبا بما نشرته من مبادىء الحرية والإخاء والمساواة ولهذا فقد وقفت الدول الأوربية موقفا عدائيا منها وتكتلت ضدها مكونة تحالفا دوليا للقضاء عليها وقد تزعمت انجلترا التحالف الدولي إلا أن فرنسا استطاعت أن تنتصر عليهم جميعا ما عدا انجلترا لتفوق أسطولها الحربي.

ـ وقد اختلف المؤرخون كثيرا في أسباب الثورة الفرنسية ١٧٨٩م حيث يرى بعضهم أنها حركة عقلية نشأت من حركة الاستنارة الحرة في القرن الثامن عشر ويرى آخرون أنها ثورة الطبقات المحرومة من الامتيازات ضد الطغيان الإقطاعي ويرى غيرهم أنها توطيد لسلطة البورجوازية الرأسمالية الحديثة ضد نظام اقتصادي واجتماعي مقيد وعتيق.

ـ أما الرأي الغالب فهو أن السبب المباشر للثورة كان دون شك حالة الإفلاس التي كانت عليها خزانة الدولة إذ نشأ عن حروب القرنين السابع عشر والثامن عشر وقصور النظام الضريبي ومجافاته للعدالة والإسراف والتدخل في الثورة الأمريكية دين عام ضخم عجزت الدولة عن إيفائه.

ـ هذا وقد دعا لويس السادس عشر مجلس طبقات الأمة وكان يرجو أن يوافق على الإصلاحات الضريبية الضرورية فاجتمع بفرساي في الخامس من مايو ١٧٨٩م ومنذ البداية انضم إلى نواب طبقة العامة عدد كبير من صغار رجال الدين وقليل من النبلاء وطالبوا بإصلاحات سياسية واجتماعية كاسحة وخارجة عن نطاق سلطات المجلس وتحدوا الملك وأعلنوا أنفسهم جمعية وطنية في السابع عشر من يونيو وأقسموا ألا ينفضوا حتى يضعوا للبلاد دستورا.

ـ هذا وقد قبل الملك ولكن أدى طرده لأحد الإصلاحيين إلى هجوم الناس المتحمسين على سجن الباستيل في الرابع عشر من يوليو وأذعن الملك مرة أخرى فأعاد ذلك الشخص ولكن قيادات الثورة أنشأت مجلس خاص عرف بالكومون لحكم مدينة باريس ونظم الحرس الوطني فيما ألغت الجمعية الوطنية في الرابع من أغسطس جميع الامتيازات الإقطاعية.

ـ وفي الخامس من أكتوبر سارت الجماهير إلى قصر فرساي وأجبرت الأسرة المالكة والجمعية على الانتقال لباريس وقامت الجمعية التأسيسية (وهو الاسم الذي اتخذته آنذاك الجمعية الوطنية) برسم دستور قيد السلطة التنفيذية إلى حد العجز عام(١٧٩١).

ـ وكانت مقدمة إعلان حقوق الإنسان الشهير وصدرت تشريعات ضد رجال الدين حين طلب إليهم أن يقسموا اليمين للسلطة المدنية عام (١٧٩٠) ما أدى إلى نفور المراكز الريفية المتدينة العديدة من الثورة.

ـ هذا وقد اعتزم الملك اللحاق بالنبلاء الذين سبقوه إلى الهرب للخارج (المهاجرون) ولكن قبض عليه بعد فراره (٢١ يونيو ١٧٩١) وأرجع إلى باريس وقبل الدستور الجديد وفي الجمعية

التشريعية تغلب الثوريون وأصبح الشعار الجديد هــو "الحريــة والمساواة والإخاء".

۩"(وهكذا قامت الثورة الفرنسية والتي اختلف المؤرخــون فــي أسبابها تلك الثورة التي اتخذت من" الحرية والمساواة والإخــاء" شعارا براقا لها ذلك الشعار الذي لم يترجم إلى أفعــال حقيقيــة على أرض الواقع حيث لم تتخل فرنسا عن نزعتها الاستعمارية كما لم تؤمن بحرية الشعوب حيث قام نابليون بونابرت صــاحب الانتصارات الباهرة ضــد التحــالف الــدولي المعــادى للثــورة الفرنسية بقيادة الحملة الفرنسية على مصر واضعا نصب عينيه تحقيق مجده الشخصي في تكوين إمبراطوريــة فرنســية فــي الشرق تكون قاعدتها مصر)".

۩"(تعليق المؤلف)"



نابليون بونابرت

(١٥ أغسطس ١٧٦٩ ــ ٥ مايو ١٨٢١)م

نشأته وتعليمه

ــ وُلد نابليون في مدينة "أجاكسيو" بجزيرة كورسيكا لأبوين ينتميان لطبقة أرستقراطية تعود بجذورها إلى إحدى عائلات إيطاليا القديمة النبيلة وكان والد نابليون واسمه "كارلو بونابرت" يعمل محاميا وقد عين لاحقا ممثلا لكورسيكا في بلاط الملك لويس السادس عشر في سنة ١٧٧٧م.

ــ وتُعتبر والدة بونابرت "ماريا يتيسيا راموليتو" الشخص الذي كان له أكبر تأثير على تكوين شخصيته إذ يُعرف عنها أنها كانت صارمة وشديدة الحزم فبينما كان نابليون صبيًا جامحًا كانت والدته غالبًا ما تقيد تصرفاته وتفرض عليه ما ينبغي أن يقوم به

وما يجب أن ينتهي عنه مما دفع البعض إلى القول أن تربيته المنزلية بحد ذاتها كانت "تربية عسكرية".

ـ وكان لنابليون شقيق أكبر منه سنًا هو "جوزيف" و٦ إخوة وأخوات أصغر منه سنًا، هم: "لوسيان"، "إليسا"، "لويس"، "پولين"، "كارولين"، و"جيروم".

ـ هذا وقد ألحقه والده "كارلو بونابرت" المعروف عند الفرنسيين باسم "شارل بونابرت" بمدرسة بريان العسكرية وفيها أخذت مواهبه العقلية تظهر وتتجلى ولكن حالته المادية كانت سيئة ومؤثرة في مسلكه بدليل قوله لكولنكور سنة ١٨١١م أي بعد أن صار إمبراطورا "(إني كنت في بريان أشد فقرا من زملائي فهم كانوا يجدون المال في جيوبهم وأنا لم أكن أجد شيئا على أنني كنت عيوفا أنوفا أفرغ جهدي حتى لا أدع أحدا يشعر بإفلاسي وكنت لا أعرف الضحك واللهو كسائر الطلاب.. إن التلميذ بونابرت كان حاصلا على علامات جيدة في دروسه ولكنه لم يكن محبوبا)".

ـ فالقائد العظيم والإمبراطور الأعظم الذي عشقه الجيش والشعب زمنا مديدا يعترف بأنه لم يكن محبوبا في المدرسة والسر في هذا النفور منه يظهر للباحث في أمرين أولهما اجتناب نابليون أسباب النفقة وضروب المعاشرة لفراغ جيبه والثاني سخر الطلاب به وتلقيبه "بالكورسيكي" لما رأوه من ذلك الانقباض ومن اختلاف عاداته وحالاته عما ألفوه في جمهورهم والحقيقة أن نابليون لم يكن يخشن إلا لمن ناوأه وهزأ به بدليل ما قاله لبوريان الذي كان أحد الطلاب "(أما أنت فأحبك لأنك لا تهزأ بي)".

ـ وصفوة ما يقال أن نابليون كان حسن العواطف في المدرسة وشديد الحرص على إتباع وصايا أمه الفاضلة ومتجه الفكر

والقلب نحو آله ومحترما من أساتذته ومحترما لهم ثم التحق بعد ذلك بمدرسة سان سير العسكرية الشهيرة وفى المدرسة أظهر تفوقا باهرا على رفاقه ليس فقط في العلوم العسكرية وإنما أيضا في الآداب والتاريخ والجغرافيا وخلال دراسته اطلع على روائع كتّاب القرن الثامن عشر في فرنسا حيث كانوا من أصحاب ودعاة المبادىء الحرة فقد عرف عن كثب مؤلفات فولتير ومونتسيكو وروسو الذي كان أكثرهم أثرا في تفكير الضابط الشاب .

نابليون والثورة الفرنسية

ـ لقد أنهى نابليون دروسه الحربية وتخرّج في سنة ١٧٨٥م وعُين برتبة ملازم أول في سلاح المدفعية التابع للجيش الفرنسي الملكي وقد لعب نابليون دورا هاما في الدفاع عن الثورة الفرنسية ضد أنصار الملكية حيث كان يميل إلى الحرية ومتحمسا لفكرة الثورة كما أثبت مقدرة عسكرية فائقة في الحروب الأولى التي خاضها ومنها معركة طولون التي وضع هو خطتها بدلا من تلك التي كان قد وضعها قائد القوات والتي تمكن فيها من حماية مدينة طولون أثناء الثورة الفرنسية وفي سنة ١٧٩٥م أظهر براعته لأول مرة في باريس نفسها حين ساهم في تعضيد حكومة الإدارة وفي القضاء على المظاهرات التي قام بها الملكيون والعناصر الرجعية ثم عاد في سنة ١٧٩٧م وأنقذ هذه الحكومة من الوقوع تحت سيطرة العناصر الملكية الدستورية فبات منذ هذا التاريخ السند الفعلي لها ولدستور سنة ١٧٩٥م وفي سنة ١٧٩٦ أصبح قائدا للجيش الفرنسي في ايطاليا وبفضل انتصاراته في الجبهة الإيطالية بين الأعوام (١٧٩٦ـ١٧٩٧م) عاد إلى فرنسا بطلا وطنيا .

۩"(وهكذا عاش نابليون في بدايات حياته فقيرا محروما مما في يد غيره ممن هم في سنّه وهو ما لم ينساه نابليون أبــدا فقــد حدث يوما بعدما صار إمبراطورا أن أحد الموظفين شــكا قلــة راتبه وكثرة عياله فقال له نابليون" أنا أعرف كل مــا تقــول ، ، أعرفه يوم كنت ملازما أول آكل الخبز الجاف وأوصد الباب على فقرى ومسكني)" وما من شك في أن فقره وحرمانه قد أثر فــي تكوينه النفسي والذي أصبح متعطشا إلى حب التملك والســيطرة ليدفع العالم بعد ذلك الثمن غاليا من دماء أبنائه)"،

عبقرية نابليون العسكرية

ـ لقد كان للأساليب التي اتبعها نابليون إضافة لتطبيقه الأفكــار العسكرية التقليدية على أرض الواقع أثرا حاسمًا على انتصاراته ومثال ذلك تحويله سلاح المدفعية إلى سلاح متنقل يُســافر مــع جيشه من موقع لآخر الأمر الذي سهل استخدامه ضــد الجنــود المشاة أكثر من مرة وقد قال نابليون عن تنظيماته العسكرية في الحملة خلال إحدى الأوقات:"(شهدت ستون معركة ولــم أتعلــم شيئا غير الذي ايقنته في المعركة الأولى كمثل يوليوس قيصــر الذي خاض معركته الأخيرة كما خاض الأولى)"،

ـ كما كان نابليون ماهرا في فــن الخــداع والتجســس حيــث استطاع الفوز في عدد من المعارك بفضل اختياره لمواقع مخفية نشر فيها جنوده وتركيزه أعدادهم على الجوانب الضــعيفة مــن جيش العدو وكان يُعرف عن نابليون أنه بحال لم يستطع تطبيق استراتيجية التطويق المفضلة لديه فإنــه كــان يجعــل جنــوده يتخذون المواقع الوسطي ويُهاجمون الفرقتين العسكريتين علــى

۩"(تعليق المؤلف)"

يمينهم ويسارهم كل على جانبها ثم يستدير ليطوق إحداها ويُقاتلها حتى تنسحب من الميدان ثم يتحرك لقتال الأخرى وقد أسر الجيش الفرنسي خلال الحملة الإيطالية ١٥٠٠٠٠ جنديًا وغنم ٥٤٠ مدفعًا و ١٧٠ راية وخاض الجيش الفرنسي خلال هذه الحملة ٦٧ معركة وفاز بثماني عشر معركة مدفعية بفضل المدافع الحديثة التي حازها وبفضل تنظيمات بونابرت واستراتيجياته ونبوغه وعبقريته وذكائه النادر .

ـ ولقد كان نابليون ينظر إلى الجيش كما ينظر الصانع العالم إلى آلة عظيمة يقتضي تركيبها تدقيقا شديدا وفكرا شديدا ولذلك كان يفكر في كل ما قل وجل من أموره حتى انتقاء الخيل وشراء المؤن اللازمة وكان جنوده كأولاده الذين يشرف على أمورهم ويسهر عليهم كما يسهر الأب على بنيه ويحضر توزيع المآكل عليهم ويتناول الحساء(الشوربة) معهم كما ذكر نابليون خطة سلوكه مع قواده فقال"(كنت أحر الرأس البارد وابرد الرأس الحار)" أوبعبارة أخرى أنه كان يكسر من حدة الحديد ويثيرها حماسة البليد مراعاة لمقتضى الحال وهى خطة بسيطة في ذاتها ولكن تنفيذها مع قواد نابليون كان يقتضى عقلا كعقل نابليون .

حياة نابليون الشخصية

ـ لقد عُرف عن نابليون قصر قامته وفشله بحياته الزوجية حيث تزوج من جوزفين دي بومارشيه ذات الأصول الفرنسية والتي أحبها نابليون حبا جما وقد تم زواجه بها في عام ١٧٩٦م وكان نابليون هو الزوج الثاني في حياة جوزفين حيث كانت متزوجة من الفيكونت ولديها منه طفلان وقد ظلت زوجة لنابليون حتى وقع الطلاق بينهما في عام ١٨٠٩م ولم يسفر هذا الزواج عن أي أطفال لهم وفي ١١ مارس ١٨١٠م تزوج نابليون من مارى لويز ابنه إمبراطور النمسا .

مصر والحلم الفرنسي

ـ ولكن بونابرت الذي استطاع هزيمة التحالف الدولي المعادى للثورة الفرنسية باستثناء انجلترا بسبب موقعها الجغرافي وتفوق أسطولها البحري لم يجد أي صعوبة في أخذ موافقة حكومة الإدارة بضرورة الاستيلاء على مصر لضرب مصالح بريطانيا العظمى في الهند .

۩"(وهكذا استطاع نابليون بونابرت بحنكته ومكانته من تحريك دفة الأمور كما أراد حيث استطاع أخذ موافقة الحكومة الفرنسية (الديركتوار) على إرسال حملة فرنسية إلى مصر لتهديد مصالح بريطانيا في الهند وتحقيق ما عجزت عنه آلة الحرب مع الإنجليز في حين وجدتها حكومة الإدارة فرصة للتخلص منه وإبعاده عن مركز السلطة على أمل ألا يعود مطلقا إلى فرنسا وذلك بعد ازدياد شعبيته ونفوذه داخل فرنسا بسبب انتصاراته الباهرة ضد أعدائها مما يدل على أن فرنسا في عهد الملكية لم تختلف عن فرنسا فيما بعد الثورة على الملكية وإعلان الجمهورية فيما يخص النزعة الاستعمارية الراسخة منذ القدم وعلى مر العصور)" .

ـ كما قدم تاليران وزير خارجية فرنسا تقريرا عن مسألة فتح مصر أعده في ١٣ شباط ١٧٩٨م استطاع أن يجمع فيه بين فكرة فتح مصر وفكرة التدخل في الهند مشيرا إلى سهولة فتح مصر .

۩"(تعليق المؤلف)"

مصر والشام قبيل الحملة الفرنسية

ـ لقد كانت بلاد الشام ومصر قبيل الحملة الفرنسية تخضع لسيادة وسيطرة الإمبراطورية العثمانية وذلك منذ هزيمة المماليك على يد السلطان العثماني سليم الأول في معركة مرج دابق بالشام عام ١٥١٦م وهزيمة المماليك بقيادة طومان باى في الريدانية بمصر عام ١٥١٧م ومنذ ذلك التاريخ ضمت عاصمتي الخلافة المملوكية السابقتين: دمشق والقاهرة لسلطة ونفوذ الخليفة العثماني الذي أصبح يُعرف ويلقب بحامي الحرمين الشريفين.

ـ خلال هذه الفترة منذ الفتح العثماني وحتى الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨)م شهدت المنطقة الكثير من الأحداث والتغيرات بلغت ذروتها بفترتي السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦)م فخلال فترة هذين السلطانين وصلت السلطنة العثمانية إلى أوج ذروة قوتها وتوسعها في آسيا وأوروبا وامتازت بقوة السلطة المركزية في اسطنبول لكن الوضع لم يبق كذلك في فترات لاحقة خاصة حينما تولى أمور الخلافة والسلطنة سلاطين ضعفاء وأديرت أمور الدولة تارة من قبل الوزير وتارة أخرى من قِبل جنود الانكشارية أو الحُكام المحليين.

ـ خلال فترة الحكم العثماني قسمت البلاد والمناطق العربية إلى ولايات إدارية يحكم كل ولاية والى يعينه السلطان العثماني وقد شملت بلاد الشام أربع ولايات وهي: الشام وحلب وطرابلس وصيدا أما مصر فاعتبرت جميعها ولاية واحدة.

ـ هذا وقد دام الحكم العثماني للشام ومصر وبقية الأقطار العربية أربعمائة سنة وخلال هذه الفترة التاريخية تكاد لا تُذكر تغيرات اجتماعية جذرية أو نهضة حضارية نتيجة للحكم

العثماني وإنما الوضع لم يكن في الحقيقة سوى استبدال حكم المماليك بحكم العثمانيين والتأثير العثماني كان في الواقع سطحيًا وهامشيًا على الشعوب العربية ٠

ـ هذا وقد اهتم السلاطين العثمانيون بالإبقاء على الوضع السائد مقابل تقديم الطاعة ودفع الضرائب للخزينة العثمانية في اسطنبول دون السعي والاهتمام لإدخال التطويرات والبناء والعمران اللازم للسكان المحليين وإذا استثنينا بعض الحركات الانفصالية لبعض الأمراء والحكام المحليين كالشهابيين في جبل لبنان وظاهر العمر في فلسطين وفي مصر لم يختلف الوضع كما هو عليه في الشام فمع ضعف السلاطين العثمانيين زاد نفوذ الفئات المحلية بشكل بارز وفي مصر تجلى ذلك بازدياد نفوذ المماليك كحكم علي بك ومحمد بك أبي الذهب ٠

ـ وكان المماليك هم العنصر الفعال في حكم مصر وأظهرهم قبل الحملة الفرنسية اثنان:إبراهيم بك ومراد بك ولهما يؤرخ الجبرتي فيقول:(" الأمير مراد بك ٠٠هو من مماليك محمد بك أبي الذهب ٠٠ اشتراه سنة ١٢٨٢هـ فأقام في الرق أياما قليلة عنده(إذ كان رقيقا من قبل) ثم اعتقله وأمره وأنعم عليه بالإقطاعيات الجليلة وقدمه على أقرانه وكان هو وإبراهيم بك أكبر أمراء محمد بك(الذي انفرد بحكم مصر) ٠٠ فلما مات محمد بك بعكا ٠٠ رأى مماليكه(أن يكون الأمير لمصر)إبراهيم بك ورضي الجميع بتقدمه ورياسته لوقور عقله وسكون جأشه فاستقر بمشيخة مصر ورياستها ونائب نوابها ووزرائها وعكف مراد بك على لذاته وشهواته وقضى أكثر وقته خارج المدينة ٠٠ كل ذلك مع مشاركته لإبراهيم بك في الأحكام والنقض والإبرام والإيراد والإصدار(المصروفات) وقاسمه الأموال والدواوين وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورطّ في الإقدام مع عدم الشجاعة ٠ ٠ثم اصطلحا على أن تكون له(مراد بك) الدواوين

البحرية ولقسيمه(إبراهيم بك) ما يرد من الأصناف الحجازية وما يضاف إلى قلم البهار وحسب في دفاتر التجار فانفرد كل منهما بوظيفته وفعل بها من الإجحاف ما سطر في صحيفته٠٠(وقد أخذ مراد بك)أموالا عظيمة من غير حلها ووضعها في غير محلها٠٠ فيا ليتها لم تزن ولم تتصدق٠٠ وقد كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدد(حدث)منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور٠٠)"٠

ـ وهذه الحقائق والأوصاف الواضحة على إيجازها من الجبرتي الذي يعد أهم شاهد على عصره تفيد بوضوح أن مصر لم تكن لها حكومة ولا شريعة ولا نظام ولا عدل ولا أمن في ذلك العهد الفاسد من حكم العثمانيين سنة ١٥١٧م وحتى تاريخ الحملة الفرنسية وإنما كان يتحكم في الناس والأموال والأعراض طغمة من المماليك وهم عبيد مستوردون بالشراء من بلاد بعيدة٠

۩"(وهكذا عززت حالة الضعف والتأخر والصراعات في مصر التابعة للدولة العثمانية الأطماع الاستعمارية في السيطرة عليها حيث أنه إلى جانب تردى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في البلاد فقد كانت الحالة السياسية شديدة التدهور حيث كان للمماليك نفوذ كبير وسيطرة فعلية في مجريات الأمور بل وقد كان الموالون منهم للإنجليز يضطهدون التجار الفرنسيين وهي إحدى ذرائع حملة بونابرت على مصر كل ذلك ولم يكن للباب العالي في اسطنبول سلطة فعلية عليهم وهو ما أوضحه قنصل فرنسا العام في القاهرة شارل ماغالون في تقريره المفصل الذي وضعه في التاسع من فبراير عام ١٧٩٨ م والذي بحث فيه الموضوع من كل جوانبه فقال"(٠٠ إن احتلال مصر يمكن أن يتم بعدد قليل من الرجال ٢٠ إلى ٢٥ ألف مقاتل٠٠ ولا أظن أن

۩"(تعليق المؤلف)"

الباب العالي سيغضب لهذا العمل غضبا يؤثر في علاقتنا الودية معه لأنه في الواقع لا سلطة فعلية لـه على المماليك وأكد ماغالون أن احتلال الهند وطرد الإنجليز منها يصبح سهلا بعد الاستيلاء على مصر وبأن على حكومة الإدارة إذا كانت ترغب في قطع وريد التجارة الإنجليزية في الهند أن تحتل القطر المصري وتقضى نهائيا على المماليك الذين يعبثون بمصالح التجار الفرنسيين)".

الحملة الفرنسية على مصر

أسباب الحملة

ـ لقد أعد نابليون بونابرت حملته العسكرية على مصر في عام ١٧٩٨م تلك الحملة التي خرجت تحت عدة ذرائع تكمن في الآتي:ـ

أولا:الانتقام من بريطانيا العدو الرئيسي لفرنسا في تلك الفترة والتي أعلنت الحرب على فرنسا واستمرار التنافس الاستعماري القديم بينهما وحينما فشلت محاولات فرنسا بمهاجمة بريطانيا واحتلالها لذا فالشرق الأدنى ومصر كانا ميدانا آخر للمس وإلحاق الضرر بانجلترا العظمى.

ثانيا: أطماع فرنسا الاستعمارية بفرض سيادتها وسيطرتها على الطرق التجارية القصيرة بين البحر المتوسط والهند والتي تمر بالشرق الأوسط وإيجاد طريق تجاري آخر وذلك بعد أن قام الإنجليز بالاستيلاء على طريق رأس الرجاء الصالح.

ـ هذا وقد أوضح نابليون الغرض السياسي من حملته على مصر قائلا:"(إن الغرض الأول من حملة الفرنسيين على مصر

هو رضخ شوكة الإنجليز في الشرق إذ لا طريق غير وادي النيل للجيش الذي يناط به هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الأحوال في الهند.. وكان بديهيا أن يفضى الاستيلاء على مصر إلى ضياع جميع المستعمرات الإنجليزية في أمريكا والهند وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا في مرافىء ايطاليا وجزيرة كورفو وجزيرة مالطا والاسكندرية صار البحر المتوسط لا محالة بحيرة فرنسية)".

ثالثا: الاستيلاء على ثروات مصر حيث كانت مصر تعتبر أغنى ولايات وأجزاء الإمبراطورية العثمانية من الناحية الاقتصادية والتجارية عدا عن كونها مركزا استراتيجيا وتجاريا مُهما ومصدرا للمنتجات الزراعية بسبب خصوبة أراضيها وإمكانية استغلالها لإنتاج المحاصيل الزراعية في المستقبل.

رابعا: ضعف الإمبراطورية العثمانية والسلطة في اسطنبول وسقوط هيبتها كدولة قوية وعظمى بأعين الدول الأوروبية.

خامسا: البحث عن فتح أسواق جديدة لتصريف البضائع الفرنسية والسلع المصنعة من فرنسا.

سادسا: اضطهاد التجار الفرنسيين من قبل المماليك الموالين لانجلترا حيث كثرت الاعتداءات المتكررة من قِبل حكام مصر على التجار الفرنسيين وهو الأمر الذي دفع الحكومة الفرنسية للعمل على توفير الحماية لرعاياها والإعلان المباشر لفرنسا من إرسال حملتها إلى مصر حيث كان (الهدف المعلن) هو توفير الحماية للتجار الفرنسيين من ظلم واعتداء المماليك عليهم وليس هدف الحملة هو الاعتداء على أملاك السلطان العثماني.

سابعا: سعي وكره رجال حكومة الديركتوار(الحكومة الفرنسية) لنابليون القائد العسكري الذي نبغ بالحنكة والتكتيك العسكري

وسعيهم للتخلص من وجوده في فرنسا وإبعاده إلى منطقة بعيدة عن مركز السلطة على أمل ألا يعود مُطلقا إلى فرنسا.

ثامنا: الطموح والأطماع الشخصية لنابليون بونابرت بإقامة إمبراطورية فرنسية عظمى تكون صاحبة السيادة في الشرق والغرب بدون منازع.

ـ هذا وقد عبر نابليون عن طموحه الشخصي الذي يجب أن يستمده من الشرق مانح الأمجاد قائلا:"(ليست أوروبا سوى تل صغير حقير كل شيء هنا يبلى مع الزمن لقد انقضى ما كسبت من مجد وأوروبا الصغيرة هذه لا تتيح مجالا كافيا للأمجاد فلا بد إذن من الذهاب إلى الشرق لأن كل مجد عظيم لا يظفر به أصحابه إلا في الشرق)".

تاسعا:الوضع السياسي والعسكري الدولي عشية الحملة كان مُلائمًا لخروج حملة عسكرية على مصر فالسلطنة العثمانية ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن ولاياتها وأراضيها وروسيا القيصرية والنمسا منشغلتان بالحرب فيما بينهما باقتسام أراضي بولندا وبريطانيا عدوة فرنسا ولعدم معرفتها بوجهة الحملة ستركز طاقاتها وقوتها بالدفاع عن بريطانيا والجزر البحرية التابعة لها ولم تأخذ بالحسبان إمكانية السيطرة الفرنسية على الطرق التجارية للهند مركز بريطانيا التجاري والاقتصادي.

خط سير الحملة الفرنسية

ـ في اليوم العاشر من أيار(مايو)١٧٩٨م أقلع أسطول فرنسي كبير من ميناء طولون بجنوب فرنسا مكون من ٢٠٠ سفينة و٥٥ مركبا حربيا و٢٨٠ نقالة جند تحمل ٣٦٨٢٦ مقاتلا و٥آلاف مدفع وآلاف الخيول وحوالى ١٢٠٠ عالم وخبير ومتخصص فرنسي اصطحبهم نابليون من أجل دراسة أحوال مصر من جميع النواحي ولمعاونته في حكم مصر ولاستغلال

موارد مصر لتكون هذه البعثة بذلك أول بعثة علمية ترافق حملة عسكرية في تاريخ الحروب وكذلك أحضر نابليون معه مطبعة عربية وأخرى فرنسية لطبع المنشورات على الأهالي.

ـ هذا وقد رست الحملة بمالطة يوم ٩ حزيران (يونيو) فاحتلها نابليون وفى صبيحة التاسع عشر من يونيو تحركت الحملة من مالطة ووجهتها مدينة الإسكندرية.

ـ هذا وقد عرف فيما بعد هذا الجيش "بجيش الشرق" الفرنسي وكان نابليون قد تجاوز ٢٨ عاما وهو في فورة الشباب وكان يحمل في جيبه أقلاما عديدة يدون في كل وقت بقلمه شخصيا أو يأمر فيدون له آلاف الأوامر والمذكرات والأفكار والخطابات العسكرية والسياسية والشخصية.

ـ وبلغ الإنجليز الخبر فعهدوا إلى " نلسون " باقتفاء أثر الأسطول الفرنسي وتدميره فقصد "نلسون" إلى مالطة وهناك علم أن مراكب نابليون غادرتها منذ خمسة أيام متجهة نحو الشرق فرجح نلسون أنها ذهبت إلى مصر فاتجه إلى الإسكندرية ووصل إليها يوم ٢٨يونيه ١٧٩٨ فلم يعثر هناك للفرنسيين على أثر.

الإسكندرية والغزو الفرنسي

محمد كريم

ـ ولد السيد محمد كريم بحي الأنفوشي بالإسكندرية قبل منتصف القرن الثامن عشر ونشأ يتيما فكفله عمه وافتتح له دكانا صغيرا في الحي وكان يتردد على المساجد ليتعلم فيها وعلى الندوات الشعبية ليتحدث وعرف بين أهل الإسكندرية بوطنيته وشجاعته وأصبحت له شعبية كبيرة بين الناس.

ـ وعندما آلت السلطة في مصر إلى اثنين من زعماء المماليك في القاهرة وهما مراد بك وإبراهيم بك فيما بين (١٧٩٠ـ١٧٩٨م) عين مراد بك السيد محمد كريم حاكما للإسكندرية ومديرا لجماركها وذلك لما لاحظه من مكانة كبيرة لمحمد كريم عند أهل الإسكندرية.

ـ هذا وكان السيد محمد كريم قد بعث إلى القاهرة مستنجدا بمراد بك وإبراهيم بك لصد خطر الحملة الفرنسية التي كانت على وشك الوصول إلى شواطئ الإسكندرية واستقر الرأي على أن يسير مراد بك مع جنوده إلى الإسكندرية لصد الغزاة ويبقى إبراهيم بك في القاهرة للدفاع عنها.

ـ هذا وقد أرسل نلسون وفدا إلى حاكم المدينة السيد محمد كريم لكي يسمح لأسطوله بانتظار الأسطول الفرنسي خارج الميناء وأن يسمح لهم أن يشتروا من المدينة ما يحتاجونه من زاد لكن محمد كريم رفض طلبهم قائلا "(ليس للفرنسيين أو سواهم شيء في هذا البلد فاذهبوا أنتم عنا..)".

منشور بونابرت إلى الجيش البرى قبيل الوصول إلى الشواطئ المصرية يونيو ١٧٩٨م

ـ لقد كان نابليون بونابرت قائدا فذا بلا جدال وكان قائدا محبوبا من جنده وضباطه حيث كان يمتلك القدرة على جذب النفوس إليه وإعدادها نفسيا وفكريا للتضحية من أجل الوطن فرنسا تحت قيادته.

نص منشور نابليون

ـ من بونابرت عضو الأكاديمية الفرنسية والقائد العام لجيش مصر: أيها الجنود إنكم ستخوضون غمار حرب سيكون لها تأثير عظيم على المدنية وتجارة العالم أجمع وستضربون إنجلترا في الصميم لتستطيعوا فيما بعد القضاء عليها.

ـ إننا سنضطر إلى قطع مسافات مرهقة على الأقدام وإلى القتال في العديد من المواقع إلا أننا سنفوز في جميع المعارك لأن العناية الإلهية معنا.

ـ وبعد أن نثبت أقدامنا في أرض مصر ببضعة أيام سنبيد أولئك البكوات المماليك الذين يدعمون التجارة الإنجليزية دون سواها والذين امتهنوا تجارنا وعاملوا سكان وادي النيل بالظلم والاستبداد.

ـ واعلموا أن الشعب الذي سنعيش معه يدين بالإسلام وأول مبادئه (أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله) فلا تعارضوه في معتقداته وعاملوه كما عاملنا اليهود والإيطاليين واحترموا شيوخه وعلماءه كما احترمنا الرهبان والقس.

ـ وليكن في نفوسكم من التسامح لتقاليد الشرع وللمساجد على نحو ما كان عليه تسامحكم مع الكنائس والصوامع والبيع ومع المعتنقين لدين عيسى وموسى ولقد كانت الجيوش الرومانية تحمى الأديان من قبلكم وترعاها وستجدون في هذه الديار عادات تختلف عن عادات أوروبا فلابد من أن تألفوها.

ـ واعلموا أن الناس الذين ستعيشون بين ظهرانيهم يعاملون النساء على غير ما اعتدنا عليه ثم إن الأمم أجمعت على أن من يعتدي على المرأة حيوان بهيم وأما النهب والسلب فلا يغني إلا فئة قليلة من الأفراد ولكنه يحط من قدرنا وينتقص من شرفنا ويملأ بغضا لنا قلوب الناس الذين تقضى مصلحتنا أن نكون معهم على صفاء ووداد.

(بونابرت)

۩"(وهكذا أوضح نابليون في منشوره لقواته البرية أهم أسباب حملته على مصر ألا وهى ضرب انجلترا في الصميم ليسهل بعد ذلك القضاء عليها وإبادة البكوات المماليك الذين أهانوا وعبثوا بمصالح التجار الفرنسيين إرضاء للإنجليز وكذلك لظلمهم واستبدادهم بالمصريين كما أوضح نابليون السياسة الفرنسية الرشيدة والمزمع إتباعها مع الشعب المصري بكل طوائفه تلك السياسة التي لا غنى عنها لمن يريد تحقيق مجدا أو تكوين إمبراطورية وذلك من خلال عدة نصائح يرى نابليون أنها ضرورية في تحقيق الاستقرار للحملة في مصر العاصمة الطبيعية للأمة العربية كما كان يسميها وهذه النصائح تكمن في الآتي احترام الدين الاسلامى ومراعاة حرماته والابتعاد عن السلب والنهب ولكن وعلى الرغم من أن سياسة نابليون المزمع إتباعها تجاه المصريين كانت تأخذ طابع الحكمة في ظاهرها إلا أن تطبيق هذه السياسة كان مقرونا بشرط لم يذكره نابليون في منشوره هذا وإنما أوضحته مجريات الأحداث بعد ذلك ألا وهو رضوخ المصريين للحملة رضوخا تاما وعدم إثارة قلاقل أو اضطرابات ضد هذا الاحتلال الفاقد للشرعية من الأساس والمخالف لمبادىء وشعارات الثورة الفرنسية(الحرية والإخاء والمساواة)وهذا ما لم يقبله الشعب المصري الرافض للاحتلال والمحتلين على مر العصور)".

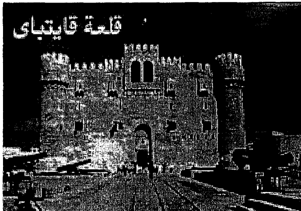
۩"(تعليق المؤلف)"

مقاومة أهالي الإسكندرية

بطولة محمد كريم

ـ هذا وكان الأسطول الفرنسي قد بادر في أول يوليو ١٧٩٨م(١٧ محرم ١٢١٣ هـ) إلى إنزال قواته ليلا إلى البر ثم سير قسما من قواته إلى الإسكندرية (يوم ٢ يوليو)ولم يكن عدد سكان المدينة يومها يزيد على ثمانية آلاف نسمة ولم يكن بها من الجنود ما يكفي لصد الجيش الفرنسي الكبير المزود بالمعدات الحديثة ولكن على الرغم من ذلك فقد استعد محمد كريم للدفاع عن الإسكندرية بكل ما لديه من ذخيرة وعتاد ·

ـ وقد ظل محمد كريم يقود المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين حتى بعد أن اقتحم الفرنسيون أسوار المدينة حيث أنزلت مقاومة الأهالي بالفرنسيين الخسائر فهاجموا الناس في بيوتهم بعد أن اتخذها أهل الثغر متاريس لهم وظل محمد كريم يقود المعركة ثم اعتصم بقلعة قايتباي ومعه فريق من الجنود حتى فرغت ذخيرته فكف عن القتال وتم أسره هو ومن معه ودخل نابليون المدينة وأعلن بها الأمان ·





الجبرتي وتفاصيل الغزو الفرنسي

مقاومة أهالي الثغر الباسلة

ـ هذا ويروى المؤرخ الكبير الجبرتي المؤرخ الذي عاصر الأحداث في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار اللحظات العصيبة للغزو الفرنسي لمصر حيث أشار إلى حضور نابليون بونابرت إلى شواطىء الإسكندرية ومعه سفن مليئة بالجنود ومقاومة أهالي الثغر الباسلة قائلا:"(فلما كان يوم الأربعاء العشرون من شهر محرم وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن في يوم الاثنين الثامن عشر وردت مراكب وعمارات للفرنسيين كثيرة فارسوا في البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد فلما نزلوا إليهم عوقوهم عندهم فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمي وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد فعندها خرج أهل الثغر ومن انضم إليهم من العربان المجتمعة وكاشف البحيرة فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم وانهزم الكاشف ومن معه من العربان ورجّع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان ودخلت الإفرنج البلد وانبث

فيها الكثير من ذلك العدد كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون عن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد أخلوا الأبراج من آلات الحرب والبارود ولكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم ونادى الفرنسيس بالأمان في البلد ورفع بنديراته عليها وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه فالزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه وأن يضعوا الجوكار ولما وردت هذه الأخبار مصر حصل للناس انزعاج وعول أكثرهم على الفرار والهجاج وأما ما كان من حال الأمراء بمصر فان إبراهيم بك ركب إلى قصر العيني وحضر عنده مراد بك من الجيزة لأنه كان مقيما به واجتمع باقي الأمراء والعلماء والقاضي وتكلموا في شأن هذا الأمر الحادث إلى اسلامبول وأن مراد بك يجهز العساكر ويخرج لملاقاتهم وحربهم و انفض المجلس وأخذوا في الاستعداد للثغر وقضاء اللوازم والمهمات في مدة خمسة أيام فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن وفي يوم الاثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم فذهبوا إلى فوة نواحيها والبعض طلب الأمان وأقام ببلده وهم العقلاء وقد كانت الفرنسيس حين فلولهم بالإسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه وأرسلوا منه نسخا إلى البلاد التي يقدمون عليها تطمينا لهم ووصل هذا المكتوب مع جملة من الاسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم وحضر منهم جملة إلى بولاق وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ومعهم منه عدة نسخ منهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون باللغات)".

ـ هذا وقد بلغت خسائر الفرنسيين حوالي المائة والخمسين قتيل وعددا من الجرحى كان من بينهم الجنرال كليبر الذي أصيب بجرح في رأسه والجنرال مينو وكاد نابليون نفسه أن يصاب

برصاصة في إحدى الحارات أطلقتها امرأة وقد وصف بوريين سكرتيره الخاص الحادث قائلا:"(دخل نابليون المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنبا لجنب وكنت أرافقه في سيره وأوقفنا فجأة طلقات رصاص كان يصوبها رجل وامرأة من أحد المنازل واستمرا يطلقان النيران وكادت إحداها تصيبه حين أمر الحرس بالهجوم وهدم المنزل والقضاء على الرجل والمرأة)" غير أن هذه المقاومة لم تستمر سوى ساعات قليلة.

ــ هذا وبعد استيلاء نابليون على أغنى إقليم في الإمبراطورية العثمانية وطبقا للبروباجندا الحربية فقد أدعى أنه صديقا للسلطان العثماني وأنه قد اعتنق الإسلام وأصبح صديق وحامى الإسلام والمسلمين وادعى أيضا أنه قدم إلى مصر للاقتصاص من المماليك لا غير باعتبارهم أعداء السلطان وأعداء الشعب المصري.

رسالة نابليون إلى الشعب المصري

ــ هذا وقد ارتدى نابليون والذي دعاه المؤرخون المسلمون بالجنرال (على) قلنسوة وعباءة شرقية وأعد منشورا يذاع على المصريين ليطمئنهم ويقنعهم بتأييد الحملة قال فيه: "(بسم الله الرحمن الرحيم لا اله إلا الله وحده ولا شريك له في ملكه.. أيها المشايخ والأئمة.. قولوا لامتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللييرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك فإن الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني أدام الله ملكه.. أدام الله إجلال السلطان العثمانى.. أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى.. لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية)".

ـ وقد جاء بالمرسوم أن بونابرت جاء ليحرر المصريين من ظلم المماليك وأنه محب للإسلام وللسلطان وأنه أكثر إيمانا من المماليك ومن نص ذلك "(وقولوا للمفترين أنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم)" وجاء أيضا في المرسوم: "(كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار)"٠

إعدام محمد كريم

ـ هذا وقد أعجب نابليون بشجاعة محمد كريم فأطلق سراحه من الأسر ورد إليه سيفه وأبقاه حاكما للإسكندرية وقال له"(لقد أسرتك والسلاح في يدك وكان يمكن أن أعاملك معاملة الأسير ولكنك استبسلت في الدفاع والشجاعة هي الوجه الآخر للشرف ولذا أعيد لك سلاحك وآمل أن تبدى من الإخلاص للجمهورية الفرنسية ما قدمته لحكومة ظالمة عثمانية)"٠

ـ ولما تم لنابليون الاستيلاء على الإسكندرية رأى أن يغادرها إلى القاهرة وعين كليبر حاكما عسكريا عليها ففي التاسع من (تموز) يوليو ١٧٩٨م بدأ زحف الحملة الفرنسية إلى القاهرة برا وبقي كليبر على رأس حامية الإسكندرية بينما أخذت دعوة محمد كريم إلى المقاومة الشعبية تلقى صداها بين المواطنين فعمت الثورة أرجاء المدينة فاعتقل كليبر بعض الأعيان للقضاء على الثورة دون فائدة٠

ـ ومع تزايد الثورة وارتفاع حدة المقاومة الشعبية في الإسكندرية أمر كليبر بالقبض على السيد محمد كريم يوم (٢٠ يوليو ١٧٩٨م) وأرسله إلى أبو قير حيث كان الأسطول الفرنسي

راسيا ثم أرسل إلى رشيد ومنها إلى القاهرة على سفينة أقلعت به في النيل من رشيد يوم ٤ أغسطس ووصلت إلى القاهرة يوم ١٢ أغسطس ووجهت إليه تهم التحريض على المقاومة وخيانة الجمهورية الفرنسية.

ـ هذا وقد استمرت المحاكمة حتى ٥سبتمبر حين أرسل نابليون رسالة إلى المحقق يأمره فيها أن يعرض على محمد كريم أن يدفع فدية قدرها ثلاثون ألف ريال يدفعها إلى خزينة الجيش ليفتدي نفسه ورفض محمد كريم أن يدفع الفدية ولما ألح عليه البعض في أن يفدي نفسه بهذه الغرامة رفض وقال "(إذا كان مقدرا عليّ أن أموت فلن يعصمني من الموت أن أدفع الفدية وإذا كان مقدرا عليّ أن أعيش فعلام أدفعها) ؟

ـ وفي يوم ٦سبتمبر ١٧٩٨م أصدر نابليون بونابرت أمرا بإعدام محمد كريم ظهرا في ميدان القلعة رميا بالرصاص.. ونفذ في السيد محمد كريم حكم الإعدام بميدان الرميلة واعتبره الأهالي (شهيد الإسلام) وقد تردد نابليون طويلا في إصدار الحكم وندم ندما شديدا بعده.

۩"(وهكذا تم احتلال الإسكندرية وذلك على الرغم من بسالة حاميتها بقيادة البطل الشهيد محمد كريم ذلك الرجل الذي لم يستطع نابليون إخفاء إعجابه الشديد بشجاعته..نعم سقطت الإسكندرية في يد الفرنسيين الغزاة إلا أن سقوط المدينة وإعدام بطلها لم يكن النهاية وإنما كان بداية لتضحيات عظيمة سطرها المخلصون من أبناء أرضنا المصرية الطاهرة في الوجهين البحري والقبلي ضد الغزاة الفرنسيين المحتلين)".

۩"(تعليق المؤلف)"

ـ هذا وقد انتشرت الشائعات بين الناس عن قرب وصول الفرنسيين إلى القاهرة وفى ذلك يقول الجبرتي"(وفى كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيين إلى مصر وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربي ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقي ومنهم من يقول لا بل يأتون من الجهتين هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتل قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء مصر بل كل من إبراهيم بك ومراد بك(الحاكمان)جمع عساكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل به وليس ثمة قلعة ولا حصن ولا معقل وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو)".

۩"(وهكذا أوضح الجبرتي حالة الناس وقلقهم من الحملة الفرنسية وانشغالهم بالجهة التي سيهاجمون منها كل ذلك ومراد بك وإبراهيم بك يقبعان في مكانهما دون استعداد حقيقي للمعركة مع الفرنسيين الذين كانوا على أبواب المحروسة وهو الأمر الذي حدث تماما في الإسكندرية التي تولى أهلها مهمة الدفاع عنها بقيادة الشهيد محمد كريم دون وجود دور حقيقي للمماليك على أرض المعركة)".

۩"(تعليق المؤلف)"

المقاومة المصرية للحملة الفرنسية

أولا: مقاومة أهالي الوجه البحري

ـ لقد أوضح د/عصام محمد شبارو في كتابه(المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني) مقاومة الأهالي في الوجهين البحري والقبلي وثوراتهم ضد المحتل الفرنسي موضحا أن المقاومة قد بدأت في الوجه البحري قبل احتلال الفرنسيين للقاهرة في ٢٤ تموز(يوليو) وأن هذه المقاومة قد استمرت وإن كانت قد هدأت عقب احتلال القاهرة لكنها لم تستسلم للاحتلال الفرنسي حيث لم تكد ثورة القاهرة الأولى تندلع في ٢١ تشرين الأول(أكتوبر) ١٧٩٨ حتى انتقلت روح الثورة إلى الوجه البحري ولا غرو في ذلك فالوجه البحري كان أول منطقة مصرية قصدتها الحملة الفرنسية التي نزلت على شواطئه فكانت الإسكندرية أول مدينة يحتلها الفرنسيون في ٢ تموز(يوليو) ١٧٩٨ وفي ٩ تموز (يوليو) ١٧٩٨م قامت الحملة من الإسكندرية في طريقها إلى القاهرة فاصطدمت بمقاومة المصريين في البحيرة.

المقاومة في البحيرة

ـ كانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسي في زحفه إلى القاهرة فلاقت من وراء هذا الاجتياز أذى كبير من اعتداء الجنود ونهبهم القرى والمنازل ولكن ما لبثت المتاعب أن لحقت بجيش الاحتلال فقد أخذ رجال المقاومة المصرية يتصيدون الدوريات الفرنسية ومنها دوريات كانت تحمل بريد نابليون و تعرض الفرنسيون لشدة العطش بسبب ردم العربان الآبار في هذه المنطقة التي وصفوها بالصحراء مع أنه ليس هناك إجماع من قبل الجغرافيين على صحة هذا الوصف.

ـ وما إن وصل الجيش الفرنسي إلـى دمنهـور حتـى أصـدر نابليون أوامره بمواصلة الزحف للرحمانية التـي شـاهد فيهـا الجنود الفرنسيين نهر النيل لأول مرة فكانت فرحتهم كبيرة حتى أن بعضهم قد لقي حتفه لكثرة شربهم من مياهه ،

موقعة شبراخيت

١٣ تموز(يوليو) ١٧٩٨م

ـ وفى ١٣ يوليو ١٧٩٨ وقعت معركة شبراخيت بـين جـيش مراد بك و كان تعداده ١٢ ألف رجل مـنهم ثلاثـة آلاف مـن فرسان المماليك والباقون من الفلاحين المصريين الذين تسلحوا بالعصي والبنادق القديمة وبين الجيش الفرنسـي الـذي كـان ينقصه الفرسان ومع ذلك انتصر على جيش مراد بك الذي يجهل الأساليب الحديثة في القتال و تبين أن القسط الذي احتله الأهالي في هذه المعركة كان كبيرا بل كان أكبر من قسط المماليك ،

الجبرتى يصف موقعة شبراخيت

ـ ويذكر الجبرتي موقعة شبراخيت قائلا:"(وفي يـوم الخمـيس الثاني والعشرين من الشهر وردت الأخبـار بـأن الفرنسـيس وصلوا إلى نواحي فوة ثم إلى الرحمانية واستهل شـهر صـفر سنة ١٢١٣ وفي يوم الأحد غرة شهر صفر وردت الأخبار بـأن في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقى العسـكر المصري مع الفرنسيس فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وإنمـا هـي مناوشـة مـن طلائـع العسكريين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية واحتـرق بهـا رئيس الطبجية خليل الكردل وكان قد قاتل في البحر قتالا عجيبا فقدر الله أن علقت نار بالقلع وسقط منهـا نـار إلـى البـارود

فاشتعلت جميعها بالنار واحترقت المركب بما فيه من المحاربين وكبيرهم وتطايروا في الهواء فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزم وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ونزلت المشاة في المراكب ورجعوا طالبين مصر)".

ــ ثم تابع الجيش الفرنسي زحفه قاصدا القاهرة و كان الأهالي يتعقبون فرق الجيش الزاحفة فيقتلون كل من يدركونه و لقي الفرنسيون عناء كبيرا في اجتياز هذه المرحلة ومع ذلك قاموا بنهب عدة قرى في طريقهم للقاهرة.

ــ هذا وقد هدأت المقاومة في البحيرة عقب ورود الأخبار باحتلال الفرنسيين القاهرة إلا أن الأهالي كانوا يتحينون الفرص لمقاومة الفرنسيين و خاصة عندما علموا بنبأ ثورة القاهرة الأول مما ساعد في تحركهم ضد الاحتلال الفرنسي في نوفمبر ١٧٩٨ فهاجموا قوافل الفرنسيين شمال البحيرة.

المقاومة في رشيد

ــ تعتبر مدينة رشيد مفتاح النيل على البحر المتوسط حيث تقع على الضفة الغربية من الفرع الغربي للنيل أي فرع رشيد كما تعتبر طريق المواصلات النيلية إلى داخل البلاد وكان لها أهمية حربية كبرى لأنها صلة اتصال الجيش الفرنسي بين القاهرة و الإسكندرية عن طريق النيل لأن المواصلات البرية كانت مهددة من جانب الأهالي بداخل البلاد.

ــ هذا وقد احتل الفرنسيون رشيد في٦ يوليو ١٧٩٨ دون مقاومة بعد أن هرب الحكام المماليك منها عندما علموا بنبأ احتلال الإسكندرية وعين نابليون الجنرال مينو حاكما لرشيد فهدأت له الأحوال أول الأمر لكن مركزه ازداد حرجاً بعد موقعة أبى قير البحرية (١-٢أغسطس١٧٩٨) لأن رشيد كانت من

أولى المدن التي علمت بكارثة الأسطول الفرنسي وهزيمته في خليج أبى قير كما كانت أكثر المدن تأثرا من وقوع هذه الكارثة فأخذت روح المقاومة في نفوس سكانها وقويت روح الثورة في ضواحي رشيد في نوفمبر ١٧٩٨م وذلك في أعقاب ثورة القاهرة الأولى التي كانت المصدر الرئيسي لسريان الهياج و الثورة في أنحاء البلاد ٠

ـ كما كانت السفن الإنجليزية والتركية توفد بعض الرسل إلى الشاطىء لتحرض الأهالي على الثورة وهكذا تكرر هجوم المصريين على قوافل الفرنسيين في جهات رشيد وأبى قير وشمال البحيرة ٠

احتلال الفرنسيين للقاهرة
٢٤تموز(يوليو)١٧٩٨م
معركة الأهرام (إمبابة ٢١ يوليو ١٧٩٨م)

ـ وفى أولى المعارك البرية بالقرب من الأهرام اشتبك الجيش الفرنسي بقوات المماليك وقد عُرفت هذه المعركة فيما بعد بمعركة الأهرام(إمبابة) وكان نابليون قد شاهد قوات مراد بك عند إمبابة ٢١ يوليو ١٧٩٨م فأراد أن يبعث الحماسة في نفوس جنوده فخاطبهم قائلا:"(تقدموا أيها الجنود واعلموا أن أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام)" وقد انتصر فيها نابليون بفضل قواته الفرنسية المدربة والمجهزة بالأسلحة الحديثة والمدافع على جيش الخيالة المملوكي بقيادة مراد بك الذي فر إلى الصعيد ٠

ـ هذا وقد علق الجبرتي مستنكرا حالة اللامبالاة وعدم الاستعداد للمعركة والهمجية والفوضى عند المماليك قبل وأثناء معركة الأهرام قائلا:"(الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه وأمامه(أي حاصر المماليك) ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية(الآلية) والمدافع٠٠ بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت واستمرت الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع الساعة ثم كانت٠٠ الهزيمة على العسكر الغربي(في منطقة إمبابة)فغرق الكثير من الخيالة(الفرسان!!) في البحر(نهر النيل) لاحاطة(حصار) العدو بهم وظلام الدنيا٠٠ وفر مراد بك ومن معه)" إلى الصعيد بينما فر إبراهيم بك ومن معه إلى بلاد الشام فلم يحاول ولو مجرد مناوشة الغزاة٠

ـ هذا ويعلق "جوزيف مارى مواريه" في مذكراته(مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر) على معركة الأهرام قائلا"(في هذه المعركة نجحنا في الاستيلاء على أربعين قطعة مدفعية والكثير من العتاد والذخيرة والمؤن علاوة على أربعمائة من الجمال المحملة بالذهب والفضة ولم يكلفنا هذا النصر الذي أسميناه الأهرامات سوى بعض الدماء الفرنسية وقد قال الجنرال بارتييه"(لم تثبت الخطط العسكرية الأوربية قط مثلما أثبتت اليوم تفوقها على الشجاعة الشرقية غير المنظمة)" وقد فتح هذا الانتصار الطريق أمام الفرنسيين لاحتلال القاهرة في ٢٢ يوليو ١٧٩٨م٠

ـ هذا وقد أخذ نابليون يسير بجواده فوق رمال الصحراء متوجها إلى أبى الهول وأهرامات الجيزة يفكر في هذه اللحظة فيقول إن الاسكندر وقيصر وقف كلاهما في هذا المكان يفصلهما عن أبى الهول ألفان من السنوات وأربعين قرنا من الزمان٠

ـ هذا وقد اجتمع العلماء والمشايخ في الأزهر الشريف وقرروا التسليم وتوجه وفد منهم إلى نابليون لتسليم القاهرة فأحسن استقبالهم وطمأنهم على أرواحهم وأموالهم ودخل نابليون مدينة القاهرة في ٢٤ يوليو ١٧٩٨م من باب النصر واستقر في منزل الألفي بالأزبكية .

ـ هذا وقد أورد "جوزيف مارى مواريه" في مذكراته استيلاء الفرنسيين على القاهرة قائلا:"(وتم الإطاحة بحكومة المماليك واستولينا على صعيد مصر وحين بلغ بونابرت هذه المدينة وجه لسكانها البيان التالي"(يا شعب القاهرة أنا سعيد بسلوككم لقد أحسنتم صنعا بعدم الانحياز ضدي فما جئت إلا للقضاء على سلالة المماليك وحماية التجارة ومصادر البلاد الطبيعية ليهدأ كل من كان بنفسه خوف وليعود كل من خرج عن منزله ولتقام الصلاة اليوم كما هي العادة وكما أريد لها أن تستمر دوما لا تخشوا على نسائكم وبيوتكم وأملاككم وخاصة على دينكم الذي أحبه) .

(بونابرت)

موقعة أبى قير البحرية
١(آب)أغسطس ١٧٩٨م

ـ لقد وقف أسطول نلسون منتظرا خارج الثغر أربعا وعشرين ساعة ثم أقلع متجها إلى شواطىء الأناضول بحثا عن غريمه ولم يمض على رحيله غير أسبوع حتى ظهر الأسطول الفرنسي أمام شواطىء الإسكندرية ولكن الأسطول الانجليزى بقيادة نيلسون والذي كان يراقب الأسطول الفرنسي باغته الهجوم في ميناء أبى قير شرقي الإسكندرية واستطاع أن يحطمه ويدمره تماما بسبب عجزه عن الحركة وتكدسه في المرسى وذلك في

ليلة ١ أغسطس والساعات الأولى من صباح ٢ أغسطس ١٧٩٨م وقد قدرت الخسائر الفرنسية بحوالى ١٧٠٠ قتيل بينهم نائب الأدميرال و ٣٠٠٠ أسير بينما بلغت الخسائر البريطانية ٢١٨ قتيلا و لكن برغم تلك الهزيمة القاسية للفرنسيين إلا أنها لم تعرقل وتمنع نابليون من فرض سيادته وسيطرته على مصر.

ـ هذا وقد أكدت هذه الكارثة أهداف الحملة الفرنسية بوضوح حيث أرسلت حكومة الإدارة في باريس إلى نابليون بونابرت قائد جيش الشرق رسالة تقول"(تقدر الحكومة الموقف العصيب الذي أصبتم به وأن جيش الشرق أصبح معزولا تماما عن الوطن الأم ولهذا فإن الحكومة تترك لك حرية اتخاذ القرار فيما يجب القيام به سواء بالصمود في مصر أو مواصلة الزحف إلى الهند وإثارة الانتفاضة الهندية الكبرى بالتحالف مع الأمراء ضد انجلترا أو الزحف شمالا إلى القسطنطينية واقتطاع القدر الأكبر من الإمبراطورية العثمانية وأيا كانت الوجهة التي سوف تتجه إليها فإنه لا يخالج الحكومة أي شك في عبقرية قائدها العظيم وفى حسن الحظ الذي يلازمه وتحية لك وللرجال البواسل المتميزين الذين يحيطون بك)".

ـ كما أذاع بونابرت خطابا يخفف به وقع الكارثة على جنوده وضباطه وكان شديد الوطأة حيث قال فيه"(إذا كان الطريق بيننا وبين الوطن قد انقطع فلم يعد البحر الأبيض بحيرة فرنسية إلا أن كل الطرق مفتوحة أمامنا برا وبحرا لتنفيذ حلمنا العظيم سواء شمالا نحو القسطنطينية أوشرقا نحو الهند)

نتائج موقعة أبى قير البحرية

ـ لقد كانت موقعة أبى قير البحرية ضربة مؤلمة للفرنسيين حيث أغرق الأسطول الفرنسي وبدأت تتبدد آمال فرنسا في تكوين إمبراطورية فرنسية وشجعت تلك الموقعة العثمانيين للتحالف مع الإنجليز وكذلك المصريين الذين قاموا بثورات عديدة ضد الفرنسيين بتحريض من الإنجليز والأتراك والمماليك كما انخفضت الروح المعنوية بالنسبة للفرنسيين لأنهم أحسوا بأنهم محاصرين داخل مصر لاستيلاء الإنجليز علي شواطئ مصر الشمالية فقطعت الصلة بينهم وبين فرنسا فكشر نابليون عن أنيابه وفرض الضرائب علي الشعب المصري وقام جنوده بالسلب والنهب في البلاد ٠

۩"(وهكذا أفنى الأسطول الانجليزى الأسطول الفرنسي عن بكرة أبيه في تلك المعركة البحرية الهامة والتي تسميها بعض المصادر التاريخية أيضا (بمعركة النيل) هذا وعلى الرغم مما يبديه خطاب بونابرت لجنوده من تحدي لهذه الكارثة وعلى أنها لن تؤثر على مشروع فرنسا الاستعماري في الشرق إلا أنها كانت حكمة القائد المحنك بونابرت الذي خاض غمار الحروب والذي أراد من تصريحاته هذه تخفيف وقع الصدمة على جنوده كما أنه لم يكن قد فقد الأمل كليا لأنه كان يدرك تماما أن الهزيمة في معركة لا تعنى على الإطلاق خسارة الحرب فقد كان الرجل يتميز بإرادة قوية تقهر المستحيل لكن الحقيقة التي لا مفر منها تؤكد أن تدمير الأسطول الفرنسي في أبى قير يعتبر ضربة موجعة وكارثة بكل المقاييس وأحد العوائق في طريق تحقيق حلم نابليون في تكوين إمبراطوريته في الشرق وهو ما ستأكده مجريات الأحداث)" ٠

۩"(تعليق المؤلف)

المقاومة في الشرقية

ـ لقد وقعت معركة إمبابة ٢١ يوليو ١٧٩٨م وانهزم فيها المماليك بقيادة مراد بك الذي فر إلى الصعيد بينما فر إبراهيم بك بمماليكه إلى جهة بلبيس عاصمة الشرقية لكن نابليون وجد خطرا يتهدد مركز الفرنسيين من وجود هذه القوة في شرق الدلتا و على مسافة ٤٠ كم تقريبا من القاهرة فعزم على مطاردة إبراهيم بك ليخلص له الوجه البحري .

ـ هذا وقد بدأت طلائع الجيش الفرنسي تزحف يوم ٢ أغسطس ١٧٩٨ من القاهرة فاحتلوا الخانكة يوم ٦ أغسطس حيث وثب الشعب على جنود الجيش الفرنسي واستولوا على سلاحهم وقتلوهم فانسحب ٦٠٠ جندي من المنطقة إلى المرج و طلبوا النجدات ثم كروا عائدين إلى الخانكة فإذا هي خالية فأشعلوا في البلدة النار .

ـ وتوالت التقارير على نابليون وكل الدلائل تدل على أنه لابد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات فسار نابليون نفسه إلى بلبيس ثم أسرع إلى الصالحية متعقبا بعض فلول المماليك دون أن يصحب سلاحه الثقيل معه وكاد نابليون و قواته أن تدمر في هذه الملحمة التي استعمل بها السلاح الأبيض لولا أن أدركته النجدات وقتل وجرح عدد من الفرنسيين من بينهم ضباط كبار .

ـ هذا وقد ترك نابليون هذه الحملات التأديبية لقواده وعاد إلى القاهرة بعد أن أمر بأن تكون بلبيس مركزا عسكريا رئيسيا ولكن وفرة القوات الفرنسية لم تمنع الأهالي من تكوين قوات فدائية أخذت تغير على المعسكرات راكبة خيولها وألزمت قوات العدو بأن تحتمي ببيوت بلبيس نفسها حتى أقبل المدد وبدأت المدفعية تعمل عملها في رد جموع الفرسان المصريين و بلغ عنف المعارك أن نهب المعسكر الفرنسي الرئيسي أكثر من مرة

وعلى الرغم من أوامر نابليون باستعمال منتهى الشدة في أخذ الرهائن وإعدامها وإحراق القرى فإن مقاومة الشرقية أجبرت قائد بلبيس أن يفاوض زعماء الثورة في الصلح ولكن أحدا لم يقبل منه أقل من إخلاء المنطقة كلها واستمرت الاضطرابات في الشرقية خاصة بعد اندلاع ثورة القاهرة الأولى٠

المقاومة في المنوفية

ـ لقد عين نابليون الجنرال زايونتشك قومندانا للمنوفية وأصدر تعليماته إليه أن يتعاون على توطيد سلطة فرنسا في هذه المديرية وأن يجرد الأهالي من السلاح ويصادر خيولهم ويعتقل أعيانهم رهائن وكل ذلك لإخضاع البلاد وإلقاء الرهبة٠

ـ كما كتب لقومندان المنوفية يقره على إعدام خمسة من الأهالي في كل قرية من القرى الثائرة وأمره أن تقدم كل قرية جوادين من خير الجياد وكل قرية لا تذعن لهذا الأمر وتمضى خمسة أيام على إعلامها به تفرض عليها غرامة ألف ريال وقد كان لهذه الأوامر الظالمة أثرها في تأجيج نار الكراهية ضد الفرنسيين٠

مقاومة غمرين وتتا

ـ سار قومندان الغربية في قوة من الجند من القاهرة قاصدا منوف في أغسطس سنة ١٧٩٨ثم غادرها قاصدا الغربية واصطدم في طريقه بمقاومة عنيفة من قريتي غمرين وتتا وهما بلدتان متجاورتان شمالي منوف حيث ثار أهل القريتين وحملوا السلاح وأغلقوا الأبواب في وجه الجند فحاول القائد الفرنسي عبثا أن يكره البلدين على فتح أبوابها فلم يستطع ولما أعيته الحيل طلب المدد من قومندان المنوفية الذي كان مرابطا بمنوف فأمده بقوة من جنوده وتعاونت القوتان على إخضاع القريتين

بعدما دافع أهلها دفاعا شديدا واشتد القتال وخاصة في غمرين واشتبك الأهالي والجنود في طرقاتها فانهمرت فيها الدماء وغطت الأرض جثث القتلى.

ـ هذا وقد عبر أحد الضباط الفرنسيين عن مقاومة أهالي قرية غمرين الباسلة قائلا:"(جائنا المدد وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين وقتلنا من الأهالي من أربعمائة إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن الجنود ببسالة وإقدام أما خسائر الفرنسيين فكانت قتيلا واحدا واثني عشر جريحا ولم تكن عندنا فؤوس فكان ذلك من الأسباب التي أخرتنا عن اقتحام أبواب القرية)".

ـ وبذلك استولى الفرنسيون أولا على غمرين ثم قصدوا إلى تتا فاستولوا عليها وأضرموا النار في القريتين عقابا لهما على الثورة ونفذت ذخيرة الجنود في محاربتهم لبلدتي غمرين وتتا فعاد قائدهم إلى منوف ينتظر المدد.

۩"(وهكذا تجلت بطولة وشجاعة أهالي قرية غمرين في الدفاع عنها بما يمتلكون من فؤوس وعصى أمام جنود نابليون المدججين بأحدث أسلحة ذلك العصر تلك الأسلحة التي لم ترهب المقاومين من الرجال أو حتى النساء اللاتي سطرن بدمائهن الشريفة أروع البطولات فى أشرش الملاحم بين الأهالي والقوات الفرنسية الغازية على أرضنا المصرية الباسلة)".

۩"(تعليق المؤلف)"

المقاومة في المنصورة

ـ على أثر تعيين الجنرال فيال قومندانا لمديريتى المنصـــورة و دمياط في أوائل أغسطس ١٧٩٨ مضى بفرقته إلـــى مـــديريتين لإخضاعهما فقصد أولا المنصورة ثم احتلها وترك فيها حاميـــة مكونة من ١٢٠ جنديا واتجه إلى الشمال لكن أهل المدينـــة لـــم يحتملوا منظر العدو بينهم فثاروا على معسكر هذه الحامية فـــي هجوم خاطف فبينما كان الجنود في معسكرهم يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كبيرة من أهالـــي البلاد المجـــاورة وكان اليوم يوم السوق العامة فاختلطوا بأهـــل المدينـــة كلهـــا بالثورة رجالا و نساء،

ـ وكان النساء يحرضـــن أزواجهـــن علـــى أن يثـــوروا ضـــد الفرنسيين ولما شعر الجنود بالخطر امتنعـــوا فـــي معســـكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا في دكه وأشعلوا فيه النار فاضـــطر الجنود إلى إخلائه هاربين وانحدروا إلى السفن قاصدين الفـــرار ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفـــن أن يحملـــوهم فقصدوا البر إلى دمياط ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريـــق ثـــم أبادوهم عن آخرهم إلا امرأة أحد الضباط و ابنتها أبقوا عليهمـــا و في المراجع الفرنسية أن الفتاة قد اشتراها شيخ العرب "أبـــو قورة" بميت العامل(مركز أجا) وتزوج بها فلبثت عنده حتى مات عنها سنة ١٨٠٨ في عهد محمد على وبقيت حافظة على عهده قائمة على تربية أولادها منه،

ـ هذا وقد أشعلت واقعة المنصورة نار الثورة والهياج في البلاد المجاورة ثم وصل الجنرال دوجا الذي عينه نـــابليون قومنـــدانا لمديرية المنصورة وجنوده جنوب المنصورة يـــومى ١٧ و ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ فلما علم عند وصوله بمـــا حـــل بجنـــود الحامية توقع أهل المدينة انتقاما شديدا فكتب الأعيان رسالة إلى ديوان القاهرة ينفون فيه تهمة الاعتداء على الجنود وينســـبون

ذلك إلى الفلاحين والعرب الذين اقتحموا المدينة يوم الواقعة وذهب قاضي المنصورة خصيصا إلى القاهرة ليدافع عن مسلك سكان المدينة وقد علم نابليون بنبأ الحادثة ووصلته رسالة أعيان المنصورة التي كتبوها للديوان فبعث إلى الجنرال دوجا منح عقاب أهل المنصورة عقابا شديدا ويأمره أن يقتل تسعة أو عشرة من أعيانها و كان الجنرال رجلا حكيما فحقق في المعتدين ومنهم رجلان كانت لهما شهرة في تلك الجهات وهما الأمير مصطفى وعلى العديسى فاكتفى الجنرال دوجا بالحكم على اثنين من أهالي المنصورة بالإعدام لثبوت اشتراكهما في القتل ونفذ الحكم فيهما وطافوا برأسيهما في شوارع المدينة عبرة وإرهابا وأخذ الجنرال دوجا يتأهب لتعقب المعتدين في بلاد البحر الصغير والقبض على الأمير مصطفى وعلى العديسى وتجريد حملة عسكرية لمعاقبة القرى التي اشتركت في الاعتداء على الجنود .

ـ هذا وقد طلب نابليون إلى الجنرال دوجا إخضاع بلاد مديرية المنصورة وأخذ رهائن من كل قرية اشترك أهلها في الاعتداء على الجنود ثم إحراق القرى التي يرى أنها كانت أبلغ في الاعتداء وأمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة عقابا لهم على سوء صنيعهم وفرض ألفي ريال على القرى التي اعتدت على الجنود ولقي الفرنسيون عناء كبيرا في إخضاع مديرية المنصورة فقد اشتدت فيها المقاومة وامتنع كثير من البلاد عن دفع الضرائب وكان محصلو الأموال الأميرية إذا ذهبوا لقرية لجباية الضرائب أو مصادرة أملاك يقابلون بالرصاص رميا أو بالعصي ضربا وفي بعض الأحيان كانوا يصطحبون بعض الخفراء لحراستهم فلا يعصمهم ذلك أن يلقوا نفس المقابلة وعطل الفيضان حركات نقل الجنود في البر فساعد هذا العامل على فيضان روح الثورة في القرى واضطر الجنرال دوجا إلى تأخير ما عهد إليه من إخضاع ذلك الإقليم و

معاقبة القرى التي ثارت في وجه الجيش أو التي اشتركت في قتل الحامية الفرنسية بالمنصورة واشتدت الاضطرابات في منطقة ميت غمر ودنديط وميت الفرماوى

المقاومة على البحر الصغير

ـ لقد اهتم نابليون بإخضاع بلاد البحر الصغير الموجودة بين المنصورة وبحيرة المنزلة وارتياد الجهات الموصلة للبحيرة وكان يهدف من ذلك إخضاع تلك البلاد وكذلك تأمين المواصلات بين دمياط والمنصورة والصالحية وبلبيس حتى يطمئن لحدود مصر الشرقية فجرد حملة عسكرية لإخضاع البحر الصغير ومعاقبة القرى الثائرة في هذا الإقليم كما عهد إلى هذه الحملة معاقبة بلدتي منية محلة دمنة والقباب الكبرى الواقعتين على بحر أشمون إذا جاهر أهلهما بالعصيان والامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التي فرضت عليهم٠

المقاومة في دمياط
بطولة حسن طوبار

ـ امتدت شعلة الثورة إلى دمياط في أوائل سبتمبر ١٧٩٨ و كان حسن طوبار زعيم إقليم المنزلة قد سار بسفنه لدمياط ليشارك مع أهلها في الدفاع ضد الاحتلال الفرنسي وكانت المعارك ضارية في المدينة والقرى المحيطة بها حيث تمكن أهالي عزبة البرج من إفناء الحامية الفرنسية المعسكرة بها ثم بدأ الجنرال فيال هجومه حيث تغلب على الثوار وردهم على أعقابهم فانسحبوا إلى قرية الشعراء وهي جنوب دمياط فتقدم الفرنسيون نحوها و كان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار فاقتحم الجنود القرية واستولوا عليها ونهبوا وأضرموا النار فيها وخسر الثوار في المعركة نحو خمسين قتيلا وخسر

الفرنسيون اثني عشر قتيلا وثلاثين جريحا ثم استمرت حملات الفرنسيين التأديبية حتى أصبحت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد يبيع الفرنسيون فيه ما نهبوه وسلبوه فكانوا يعرضون المواشي والطيور والثيران وغير ذلك ،

ـ هذا وقد تفاقمت الثورة في البلاد الواقعة بين المنصورة و دمياط وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلة للجنود في النيل فأمر نابليون بتجريد قوة برية بحرية مزودة بالمدافع للسيطرة على بحيرة المنزلة و القضاء على نفوذ حسن طوبار ولكن بحيرة المنزلة كانت مليئة بمئات الجزر مما سهل على الثوار المناورة و الاختفاء والهجوم مما اضطر القوة البحرية الفرنسية للتراجع حتى عادت لدمياط لكنهم احتلوا بلدتي المنزلة والمطرية مما جعل استمرار المقاومة في الجزر بغير قواعد برية أمرا متعذرا فترك حسن طوبار المنزلة إلى غزة ،

المقاومة في الجمالية

ـ واصلت الحملة سيرها حتى وصلت برنبال الجديدة ثم غادرتها ووصلت بحرا تجاه الجمالية على البحر الصغير فوحلت السفن الفرنسية في بحر أشمون من قلة المياه وانتهز الأهالي الفرصة فهاجموا السفن الفرنسية و كانوا يتبعونها من بعيد واشترك في هذا الهجوم أهالي الجمالية فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلا من الحجارة من على أسوار بلدتهم فأمر قائد الحملة بإنزال الجنود إلى البر لرد الهجوم وأمكنه أن يفرق الجموع التي أحدقت بالقوات الفرنسية ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذي نزل به ورأى أنه لا يستطيع الثبات ولا متابعة السير في بحر أشمون فأضرم النار في الجمالية وعاد أدراجه إلى المنصورة ومن معه من جرحى وقتلى وكانت معركة الجمالية ذات شأن خطير وقد أشاد جنود الحملة ببسالة وشجاعة المصريين المقاومين ،

المقاومة في الغربية

ـ لقد عين نابليون الجنرال فوجير قومندانا للغربية وأصدر تعليماته إليه أن يتعاون على توطيد سلطة فرنسا في هذه المديرية وأن يجرد الأهالي من السلاح ويصادر خيولهم ويعتقل أعيانهم رهائن وكل ذلك لإخضاع البلاد وإلقاء الرهبة .

ثورة طنطا

ـ كانت طنطا كما هي الآن أكبر بلاد الدلتا من حيث الوجهة التجارية وقد بلغ عدد سكانها في ذلك العصر عشرة آلاف نسمة وترجع مكانتها إلى كونها مركز تجارى وإلى ضريح السيد أحمد البدوي ومواسمه المعروفة فكان يزورها سنويا في أيام المولد الأحمدي نحو مائة ألف زائر من مختلف المدن والأقطار وقد ظهرت أعراض الهياج والثورة في طنطا أوائل أكتوبر ١٧٩٨ وقد أجمع أهلها عن الامتناع عن دفع الضريبة أو أي غرامة تفرض عليهم .

ـ وكان نابليون ينظر إلى طنطا كمدينة مقدسة للمسلمين تلي مكة والمدينة في الأهمية ويستشعر احترامها محافظة على إحساس الأهالي فتحاشى أول الأمر أن يرسل إليها قوة من الجنود حتى لا يصطدموا بالأهالي أو يعتدوا على الشعائر الدينية فتثور ثائرتهم ولكن قومندان الغربية رأى روح الهياج والتمرد تقوى وتشتد فأرسل إليها كتيبة من الجنود وعهد إليها اعتقال زعماء المدينة وأخذهم رهائن وكلفها كذلك أن تخضع الأهالي فيما جاورها وفى البلاد الواقعة على طريق الجنود وأخذ الرهائن منها وكان دعاة الثورة في القرى يحرضون الأهالي على العصيان .

ـ هذا وقد وصلت الكتيبة تجاه طنطا يوم ٧ أكتوبر ١٧٩٨ وقد رابط قائدها بجنوده وكلف حاكمها سليم الشوربجي أن ينفذ إليه أربعة من كبراء المدينة يكونون رهائن فجاء بأربعة من أئمة مسجد السيد البدوى ورفض أكابر المشايخ أن يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسي موثقا بالمحافظة على السكينة فى طنطا وكان المولد قائما آنذاك وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد فلم يكد قائد الكتيبة ينزل الرهائن الأربعة إلى المراكب ليبعث بهم للقاهرة حتى هرعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحراب يصيحون صيحات الغضب والسخط رافعين الرايات والبيارق فلما رآها أهالي البلاد المجاورة أقبلوا من كل حدب وصوب وانضموا إلى الثائرين و فيهم ١٥٠ من الفرسان.

ـ وقد اندفعت هذه الجموع على الكتيبة وكادت تستولي على المراكب التي معها فقابلتها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة فانهزمت الجموع إلى المدينة وعادت غير مرة تهاجمها ثم ترتد إلى داخل البلد ورأى قائد الكتيبة أن لا سبيل إلى تعقب الثائرين في مدينة كبيرة كطنطا لقلة عدد جنوده و افتقاره للمدفعية فلزم خطة الدفاع واقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنوده وعلى الدفاع عن مراكبه وتمكن من إنزال معظم قوته بالسفن ومعهم الرهائن ثم أقلعت سفنه وترك قوة من رجاله على شاطئ الترعة لمنع الثوار أن يلحقوا به وانسحب الثوار بعد معركة دامت أربعة ساعات وقد قرر القائد الفرنسي عدد الثوار بعدة آلاف وقدر خسائرهم بثلاثمائة بين قتيل وجريح وطلب من نابليون معاقبة أهالي طنطا لأن معظم الثوار كانوا منهم وألح في طلب المدد من الرجال والمدافع لإخضاعهم.

ـ ولكن نابليون جنح وقتا ما إلى الحكمة وآثر أن يتريث ولا يتمادى في التقتيل والتنكيل إذ خشي عاقبة انفجار الهياج في مدينة لها حرمتها وكان القائد قد نبه نابليون إلى أن الثوار قد

استعانوا بالعرب فكلفه نابليون أن يأخذ الرهائن منهم لإخضاعهم وإن لم يذعنوا فلينكل بهم وقد عزم نابليون على تجريد حملة عليهم بقيادة قائد جديد عينه قومندانا لمديرية المنوفية وأمره أن يسير إلى العرب في سنباط حيث يرابطون بها ويحاربهم وينتزع منهم الرهائن والأسلحة .

في المحلة الكبرى

ـ كانت المحلة الكبرى عاصمة الغربية وكانت في ذلك الوقت أكبر بلاد الدلتا في اتساعها ومركزها الصناعي وقد اشتهرت في ذلك العصر (كشهرتها الآن) بنسيج الأقمشة الحريرية والقطنية وكان عمال نسيج القطن قبل الحملة الفرنسية يبلغ عددهم فيها ألفى عامل فنزل عددهم مدة الحملة إلى خمسمائة وذلك يدل على تقهقر البلاد من الناحية الاقتصادية أثناء الحملة الفرنسية .

ـ هذا وقد رابط قومندان الغربية في المحلة الكبرى ثم انتقل منها خلال الحملة إلى سمنود التي اتخذها الفرنسيون عاصمة لمديرية الغربية وفضلوها على المحلة الكبرى لوقوعها على النيل وسهولة اتخاذها مركزا للمواصلات النيلية والحركات العسكرية .

المقاومة في عشما

بطولة أبى شعير

ـ كان القائد الجديد الجنرال لانوس يهاجم حينئذ قرية عشما وهى تابعة لمركز شبين الكوم لإخضاع زعيمها المشهور في ذلك العهد بسطوته وشدة بأسه واسمه "أبو شعير" و قد اتهمه الفرنسيون بعدائه لهم وممالأته على الجنود فجرد القائد الفرنسي حملة عليه وسار ليلة ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ قاصدا قرية عشما في كتيبة من الجنود فوصلها الساعة الثانية بعد منتصف

الليل وفاجأ مخفرين من المخافر التي وضعها أبو شعير حول القرية لحراستها فتخطاهما حتى وصل إلى مدخل البلد .

ـ وهناك التقى بمخفر ثالث أطلق رجاله الرصاص على الفرنسيين لكن الجنرال لانوس تمكن من تطويق القرية بالجنود ومحاصرة منزل أبو شعير الذي وصفه لانوس بأنه قصر محصن تحصينا تاما بالنسبة لحالة البلاد وقد علم أبو شعير بوصول الفرنسيين فركب في رهط من رجاله استعدادا للقتال وسعى لانوس في أخذه بالحسنى و لكنه أجاب بإطلاق الرصاص على الفرنسيين فأمر الجنرال لانوس رجاله باقتحام أسوار القصر وأدرك أبو شعير أنه واقع لا محالة في أسر الفرنسيين فأمر جنوده أن يطلقوا النار على الجنود ليشغلهم عن نفسه ويلوذ بالنجاة .

ـ هذا وقد تمكن أبو شعير من تسلق الأسوار ثم ألقى بنفسه في الترعة و قطعها سباحة و ما إن وصل إلى الشاطىء الآخر حتى أصابته رصاصة جندلته فمات شهيدا و كان بطلا من أبطال المقاومة الأهلية واعتبر الفرنسيون أن القضاء عليه انتصارا كبيرا حيث ابتهج الجنرال لانوس وأرسل إلى نابليون بتاريخ ٢٣ أكتوبر يخبره بمصرعه ويذكر عنه أنه لحق الجيش الفرنسي منه أذى كبير وأنهم وجدوا بمنزله بعض شارات للضباط الفرنسيين وقد ذكر لانوس عن أبى شعير أنه إذا مشى سار معه ألف و مائتا رجل في سلاحهم واعترف في رسالته لنابليون أنه لولا مفاجئته لأبى شعير في قريته لما استطاع أن يظهر عليه ولو هو علم بمقدم الفرنسيين وأعد لملاقاتهم لأصابهم منه جهد وشدة وأذى وقد استولى لانوس على ما وجده في القصر من أسلحة ومنها ثلاثة مدافع وعدد كبير من البنادق .

ـ وكانت الملاحة في الترع قد بدأت تتعطل لنقص مياه النيل على حين أن المواصلات في البر متعذرة فتأخرت الحملة التي كلف بها الجنرال لانوس إلى أوائل نوفمبر حتى جاءه المدد من القاهرة و لما وصله المدد سار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المحاذية للنيل بحجة مهاجمتها للسفن الفرنسية على فرع رشيد وبلغ طنطا دون أن يلقى مقاومة وأمكنه أن يحصل الضرائب وشتت قوات العرب التي كانت تشد أزر الثوار لكنه لم يستطع أن يقهرها أو يتغلب عليها ثم عاد إلى منوف .

ـ هذا ويعلق الجبرتي على هذه الأحداث قائلا:"(سافروا إلى جهة بحري بسبب أن بعض البلاد قام على عسكر الفرنساوية وقت الفتنة وقاتلوهم وضربوا أيضا مركبين بها عدة من عساكرهم فحاربوهم وقاتلوهم فلما ذهب أولئك المغاربة سكنوا الفتنة وضربوا عشما وقتلوا كبيرها المسمى بابن شعير ونهبوا داره ومتاعه وماله وبهائمه وكان شيئا كثيرا جدا واحضروا أخوته وأولاده وقتلوهم ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخا عوضا عن أبيهم وسكن العسكر المغربي بدار عند باب سعادة ورتبوا له من الفرنسيس جماعة يأتون إليهم في كل يوم ويدربوهم على كيفية حربهم وقانونهم ومعنى إشاراتهم في مصافاتهم فيقف المعلم والمتعلمون مقابلون له صفا وبأيديهم بنادقهم فيشير إليهم بألفاظ بلغتهم كان يقول مردبوش فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها ثم يقول مرش فيمشون صفوفا إلى غير ذلك وفيه سافر برطلمين إلى ناحية سرياقوس ومعه جملة من العسكر بسبب الناس الفارين إلى جهة الشرق فلم يدركهم وأخذ من في البلاد وعسف في تحصيها ورجع بعد أيام)" .

۩"(وهكذا انتشرت مقاومة الأهالي الباسلة في أرجاء الوجه البحري معلنة عن نفسها وعن تحديها لجبروت المحتل الغاشم وموجهة رسالة تحذيرية إلى الفرنسيين وقائدهم نابليون أن السيطرة على الأوضاع الأمنية في مدنهم وقراهم هو بمثابة محض خيال لتكون بذلك مقاومة الأهالي الباسلة في الوجه البحري ضربة أخرى موجعة ضد نابليون بعد تلك الضربة الكبرى التي تلقاها أسطوله البحري في معركة أبى قير البحرية ١٧٩٨م تلك المعركة التي كانت بداية لتقويض حلمه في تكوين إمبراطوريته في الشرق(مصر والشام)".

انتشار الثورة

ـ هذا وقد انتشرت ثورة الأهالي ومقاومتهم للفرنسيين إلى الصعيد أيضا حيث كان طائف الثورة يطوف في مختلف البلاد بحيث كانت إذا أخمدت من جهة انبعثت من جهة أخرى وهو ماصرح به ريبو أحد مؤرخو الحملة الفرنسية في هذا الصدد حيث قال:"(كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض غرامات على البلاد ولكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى آخر)".

ـ وقال في موضع آخر يصف حالة الشعب النفسية ومركز الفرنسيين:"(إن مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية فأخذت تنتفض وتتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية لقد كنا نرابط في مصر ونحتلها احتلالا عسكريا وعلى الرغم مما بذلناه

۩"(تعليق المؤلف)"

من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه!! فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع وكان اختلاف الدين واللغة والطباع و العادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسيرا بعيد الاحتمال فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة وقمع كل ثورة ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية ولإدراك هذه الغاية وزع بونابرت الجيش على مختلف أنحاء القطر لإخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة وكان قواد الفرق فضلا عن اختصاصاتهم الحربية يتوالون الإشراف على الأعمال الإدارية و المالية في مديرياتهم ويراقبون جباية الأموال والغرامات في الأقاليم)".

ثانيا: مقاومة أهالي الوجه القبلي

ـ لقد أوضح د/عصام محمد شبارو في كتابه(المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني) مقاومة الأهالي في الوجهين البحري والقبلي وثوراتهم ضد المحتل الفرنسي موضحا أن مراد بك قد فر إلى الصعيد منهزما بعد موقعة الأهرام مع الجنود الفرنسيين واتجه بفلول جيشه إلى الصعيد ليكون بعيدا عن هجمات نابليون الذي عزم على إخضاع الوجه القبلي حيث وجد نابليون أن وجود قوة مراد بك في الصعيد تعدد سلطة الحكومة المركزية وستكون نواة لمقاومة شعبية تهدد الملاحة في النيل حيث بدأت تمنع سفن الغلال من الإبحار للقاهرة لذلك فقد عين نابليون الجنرال ديزيه قائدا للحملة على الصعيد وكانت مؤلفة من نحو خمسة آلاف جندي من الفرسان والمشاة والمدفعية.

ـ وقبل أن تسير الحملة أراد مراد بك أن يدخر جنوده ويمنع الحرب وذلك بإقطاعه مديريات جرجا وقنا وأسوان على ألا تزيد فرسانه عن ٥٠٠ إلى ٦٠٠ فارس وأن يؤدى الضرائب للجيش

الفرنسي وظن مراد بك أن نابليون في موقـف حـرج عنـدما عُرض عليه هذا الطلب فرفضه نابليون .

🕮"(وهكذا رفض نابليون رجل الحروب والمعارك طلب مراد بـك لينصب ذلك الرفض في صالح الشعب المصري الذي تجرع مـن الظلم والقهر أنواعا سواء أيام حكم المماليـك أو حتـى أثنـاء الحملة الفرنسية لأنه لو تحالفت قوى الشر معا لكانت الضـحية هي الشعب المصري)" .

ـ وفى ليلة ٢٥-٢٦ أغسطس ١٧٩٨ بدأ الجنرال ديزيه زحفه من الجيزة مطاردا مراد بك إلى إقليم البهنسا والفيوم ثم أسيوط وجرجا مخترقا أطلال دندرة الكرنك والأقصر الضخمة إلى أسوان وفيلة وقد ظل مراد بك ينطلق بأقصى سرعته تارة هاربا وتـارة منقلبا ليهاجم الفرنسيين يختفي مرة في واحة الصحراء ويعـود مرة أخرى للظهور من خلفهم ينكمش جيشه ولكنه لا يلبـث أن يجمع الأحلاف والجيوش الجديدة ثم ينتهي به المطاف حيث بدأ وقد وصلت حملة ديزيه إلى بنى سـويف يـوم ٣١ أغسـطس واحتلها دون مقاومة .

ـ هذا وقد تحركت الحملة صاعدة في النيل ووصلت إلى المنيـا في ٩ سبتمبر ثم أسيوط في ١٤ سبتمبر و في ٧ أكتوبر وصـل ديزيه بلدة سد منت حيث جمع مراد بك نحو ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ فارس من المماليك والعربان ودارت معركة من أشـد المعـارك هولا كادت تسحق بها قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسـية وقد انتصر الفرنسيون وقتل منهم أربعة وأربعون وجرح مائـة بينما قدرت خسائر المماليك بأربعمائة وتقهقر مـراد بـك إلـى الفيوم .

🕮"(تعليق المؤلف)"

ـ هذا وقد تغيرت الحرب بعد هذه المعركة فصارت مقاومة محلية تتجدد تبعا للأحوال والمفاجآت وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطرا على الجيش الفرنسي من المعارك المنظمة خاصة وأن هناك فرقا بين الصعيد والدلتا حيث كان يسهل إمداد القوات المحاربة في الدلتا لسهولة التنقل فيها أما الصعيد فلم يكن الإمداد إليه سهلا وكان طول المسافات في صالح المدافعين ومنهكا لقوى المهاجمين وقد ظل الزحف مستمرا حتى أسوان دون أن يقدر الجنرال ديزيه على إخضاع الأهالي فقد كان الكل يحمل سلاحه والكل في المعركة .

ما بين جرجا وأسيوط

(كانون الثاني ـ يناير ١٧٩٩)م

ـ لقد واجه الفرنسيون في الصعيد مابين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى وكلف الجنرال دافو لقمع هذه الثورة فقام من جرجا ووصل إلى سوهاج يوم ٣يناير ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين تقدر بأربعة آلاف من الفلاحين المسلحين بالبنادق والحراب يشد أزره سبعمائة من الفرسان ونشب القتال بين الفريقين ولكن الأهالي وعلى كثرة عددهم لم يكونوا معتادين على خوض معارك حديثة فأصلتهم فرقة الفرسان نارا حامية تراجعوا أمامها تاركين ثمانين من القتلى.

ـ ومع ذلك لم تنكسر شوكة الثائرين رغم هزيمتهم مرة ثانية في طهطا ٨ يناير حيث خسروا ١٥٠ من الفرسان و ثمانين من المشاة وقد انتقم الفرنسيون انتقاما فظيعا من القرى التي أطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل واحرقوها وفى ٢٢ يناير من نفس السنة وقعت معركة سمهود بين جيش مراد بك الذي يتكون من ١٥٠٠ مملوك والباقون من الأهالي الذين

انضموا إليه وقد قدر نابليون عددهم في مذكراته بسبعة آلاف من الفرسان المصريين و ثلاثة آلاف من المشاة وألفين من عرب ينبع وجدة بقيادة الشريف حسن في حين كان الجيش الفرنسي وعدده خمسة آلاف مزودين بالمدافع والبنادق الحربية وقد هزم مراد بك وفر المماليك إلى الصحراء والفرنسيون يجدون في مطاردتهم فلما وصلوا أسوان كان مراد قد أوغل في أعماق السودان ٠

في أسوان

(شباط ــ فبراير ١٧٩٩م)

ــ في أول فبراير من نفس السنة احتل الفرنسيون أسوان وبذلك تم لهم احتلال الصعيد بأكمله وعندما أرادوا أن يعبروا النيل إلى جزيرة فيلة في مراكب الأهالي لم يقبل أحد منهم أن يسلك مركبه فلقي الفرنسيون مقاومة شديدة وحمل الأهالي أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ويوم ٢٠ من نفس الشهر احتل الفرنسيون الجزيرة وفى ٢١ احتلوا الجزر الأخرى المجاورة لها والتي شارك أهلها في الثورة وأخذ الفرنسيون يحصنون أسوان ٠

ــ وهكذا صح ما ذكره قواد نابليون فقد تحولت حرب الصعيد إلى حرب حقيقية فكتب ديزيه لنابليون في ١٧ مارس ١٧٩٩ يقول"(إني لا أكتمكم الحقيقة... إننا لن نكون سادة هذه البلاد لأننا إذا أخلينا بلدة لحظة من الجنود عادت لحالتها القديمة)" ٠

۩"(وهكذا تجلت مقاومة الأهالي وبطولاتهم فى الوجهين البحري والقبلي ضد الغزاة الفرنسيين الذين أشادوا بتلك البطولات التي أذهلتهم جميعا وجعلتهم يوقنون أنهم دخلوا جحيما لن يستطيعوا الخروج منه أحياء وأن أسلحتهم الحديثة ومدافعهم الثقيلة لن تجد نفعا مع هؤلاء الأبطال الذين يتلهفون شوقا إلى دحر المحتلين الغزاة وطردهم من أرضنا المصرية الطاهرة لتكون بذلك مقاومة الأهالي الباسلة في الوجهين البحري والقبلي ضربة أخرى موجعة وعقبة كبرى تحول دون تحقيق الاستقرار في مصر نواة الإمبراطورية الفرنسية والتي يسعى نابليون إلى إقامتها في الشرق)".

سياسة بونابرت تجاه المصريين
(١)إعلان إسلامه واحترامه للعادات والتقاليد الإسلامية

ـ منذ أن دخل نابليون بجيشه أرض مصر عام ١٧٩٨م وقد عمل على اجتذاب قلوب الأهالي والتودد إليهم بشتى الطرق لذا فقد أعلن إسلامه وأصبح حاكما مسلما اسمه (بونابردي باشا) كما أطلق المسلمون عليه اسم (علي) وكان يتجوّل وهو مرتدي الملابس الشرقية والعمامة والجلباب وكان يتردد إلى المسجد في أيام الجمعة ويسهم بالشعائر الدينية التقليدية.

ـ كما عمل بونابرت على محاباة المصريين من خلال تأكيد احترامه للعقائد والعادات والتقاليد الخاصة بهم وحاول بكل السبل إقناعهم أنه مسلم وأن الجنود الفرنسيين مسلمين وأنه قام هو وجنوده بتخريب كرسي البابا في روما والذي كان يحث

۩"(تعليق المؤلف)"

النصارى على محاربة المسلمين كما فعلوا ذلك في مالطة بطردهم فرسان القديس يوحنا فكان يحاول دائما ألا يظهر في صورة المعتدى المحتل.

ـ كما أصدر نابليون المنشورات باللغة العربية مفتتحة بالآيات القرآنية يؤكد فيها على احترامه للدين الاسلامى والمسلمين والأقباط وأنه حليف للسلطان العثماني ولا يقصد إلا محو سلطة المماليك وإنقاذ الأهالي من استبدادهم وظلمهم.

(٢) مشاركته في الاحتفالات الدينية

ـ لقد اهتم نابليون اهتماما كبيرا بمشاركة المسلمين في أعيادهم ومواسمهم وكافة احتفالاتهم ومناسباتهم الدينية والقومية مثل الاحتفال بشهر رمضان المبارك، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ومولد الحسين، والاحتفال بوفاء النيل وغير ذلك.

الجبرتي يصف احتفالات نابليون الدينية

(أ)احتفالات نابليون بشهر رمضان

ـ لقد اهتم نابليون اهتماما كبيرا بمشاركة المسلمين في الاحتفال بشهر رمضان المبارك وذلك تقربا للمصريين حيث كان يصدر أمره بالمناداة في أول رمضان بألا يتجاهر غير المسلمين بالأكل والشرب في الأسواق وألا يشربوا الدخان ولا شيئًا من ذلك بمرأى منهم كل ذلك لاستجلاب خواطر الرعية.. كما أقام نابليون عام ١٧٩٨م في الإسكندرية بطارية مدفع فوق كوم الناضورة مزودة "بكُرة" وتتصل البطارية بمرصد حلوان بحيث يتم إسقاط الكرة ساعة غروب الشمس فتحدث صوتًا وأصبح هذا الصوت إيذانا بموعد الإفطار وأطلق عليه "كرة الزوال"

ـ هذا وكان نابليون يشترك وجنوده في موكب الاحتفال قبل يوم الاستطلاع بأسبوع وعرض حسن أغا محرم المحتسب أمر الموكب على نابليون فأقره عليه وأمره أن يجعل الاحتفال كامل الأسباب وفتح نابليون أبواب داره للعلماء والأعيان واحتفى بهم وبارك شهرهم المعظم وكان يصغي كل يوم لآيات الذكر الكريم وأمر المحتسب بالاحتفال بقدوم رمضان بإعداد وليمة عظيمة في بيته دامت أربعة أيام دعا في اليوم الأول العلماء والفقهاء والمشايخ والجهادية وفى اليوم الثاني والثالث التجار والأعيان وفى اليوم الرابع أكابر الفرنسيين.

ـ جاء يوم استطلاع هلال رمضان فركب المحتسب مقدمة الموكب بكامل زينته يتقدمه مشايخ الطرق والحرف بطبولهم وزمورهم وشق شوارع القاهرة حتى وصل دار نابليون فوقف نابليون يستقبل الصناع والمشايخ وكافة فئات المجتمع ويهنئهم بحلول شهر رمضان ثم سار الموكب بعد الغروب إلى بيت القاضي وفي ليلة الرؤية كان قاضي القضاة والمحتسب ومشايخ الديوان يجتمعون ببيت القاضي "المحكمة" بين القصرين وعند ثبوت الرؤية يخرجون في موكب يحيط بهم مشايخ الحرف و"جملة من العساكر الفرنساوية"، وتطلق المدافع والصواريخ من القلعة والأزبكية فانطلق الموكب بالمشاعل والطبول والنقاقير ينادي بين الناس بالصوم ووجه نابليون الدعوات إلى المصريين للفطور والاحتفال وأكل ما لذ وطاب لعله يرضى عن نابليون وجنوده.

ـ هذا وكانت كسوة الكعبة تُودع بمشهد مولانا الإمام الحسين حتى موعد "دوران المحمل" في الأسبوع الثالث من شهر شوال وفي رمضان ١٢١٥هـ "(توجَّه الوكيل الجنرال فورييه ومشايخ الديوان إلى المشهد الحسيني لانتظار حضور نابليون بونابرت بسبب الكشف على الكسوة وازدحم الناس زيادة على عادتهم في رمضان فلما حضر ونزل عن فرسه عن الباب وأراد العبور

للمسجد رأى ذلك الازدحام فهاب الدخول وخاف العبور وسأل من معه عن سبب هذا الازدحام فقالوا: "(هذه عادة الناس في نهار رمضان يزدحمون دائمًا على هذه الصورة في المسجد ولو حصل منكم تنبيه كنا أخرجناهم قبل حضوركم فركب فرسه وكرّ راجعًا وانصرف)".

(ب) احتفالات نابليون بالمولد النبوي

ـ كما اهتم نابليون أيضا بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف وهو ما أكده المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الذي عاش في زمن الحملة الفرنسية في مصر حيث أوضح أن نابليون قد اهتم بإقامة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عام (١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨ م) من خلال إرسال نفقات الاحتفالات وقدرها ٣٠٠ ريال فرنسي إلى منزل الشيخ البكرى نقيب الأشراف في مصر في الأزبكية وأرسل أيضا إليه الطبول الضخمة والقناديل وفى الليل أقيمت الألعاب النارية احتفالا بالمولد النبوي الشريف كما عاود نابليون الاحتفال به في العام التالي لاستمالة قلوب المصريين إلى الحملة الفرنسية وقوادها.

ـ هذا ويصف المؤرخ الكبير (عبد الرحمن الجبرتي) اهتمام نابليون وجنوده بإحياء احتفالات المولد النبوي الشريف وكان الشيخ خليل البكري قد تقلد وقتها نقابة الأشراف في يوم الجمعة الخامس من ربيع الأول لسنة ١٢١٣ هـ وفيه يقول الجبرتي" (سأل ساري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال لابد من ذلك وأعطى له ثلاثمائة ريال فرنساوية معاونة وأمر بتعليق التعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكري واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره وهي عبارة عن طبلات

كبيرة مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة وصواريخ تصعد في الهواء..)"

ـ هذا وعقب هذا الاحتفال بيومين كتب بونابرت إلى الجنرال مارمو يطلب منه زيارة الشيخ البكري بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي وأشار إلى أنه يجتمع برؤساء الدين في القاهرة كما أرسل إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية نسخة من العدد الأول الذي تضمن مقالا عن الاحتفال بالمولد ليقوم بترجمته وطبعه وساري عسكر يحتفل.

ـ وفي يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الأول سنة ١٢١٤ هـ يقول الجبرتي عن احتفال ذلك اليوم:"(عمل مولد النبي بالأزبكية ودعا الشيخ خليل البكري ساري عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وصواريخ ونادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج القناديل واصطناع مهرجان)".

ـ ثم طلب بونابرت من الحكام الفرنسيين للمديريات توزيع منشورات باللغة العربية على الأهالي لإخبارهم بالاحتفال العظيم الذي أقيم بالقاهرة و(قد استمع القائد العام لقصة المولد ثم أقبل على الصلاة يحف به كبار المشايخ)"!! ولم يذكر الجبرتي شيئا عن احتفال سنة ١٢١٥ هـ.

(٣)إنشاء الديوان

ـ في يوم الثلاثاء ٢٥ تموز (يوليو) وبعد أن دخل الفرنسيون إلى القاهرة استدعى نابليون العلماء والمشايخ لمقابلته وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر وأسفرت

المباحثات عن تأليف ديوان يشرف على حكم القاهرة وتدبير شؤونها مؤلف من تسعة أعضاء هم الشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ خليل البكري، والشيخ مصطفي الصاوي، والشيخ سليمان الفيومي، والشيخ موسى السرسي، والشيخ مصطفي الدمنهوري، والشيخ أحمد العريشي، والشيخ يوسف الشبرخيتي، والشيخ محمد الدواخلي، وعين الشيخ محمد المهدي أمينا (سكرتيرا) لأعمال الديوان.

ـ كما أقام في كل مديرية ديوان وكانت المسئوليات الرئيسية للديوان هي تعيين المسئولين عن الإدارة المحلية والأمن والتموين والانضباط في الأسواق والمدينة وكذلك النظر فيما يتعلق بتظلمات الأهالي وشئونهم وهذا الديوان كان بمثابة البرلمان أو الجمعية التحضيرية والاستشارية لنابليون لإدارة شؤون مصر.

الحركة العلمية في نواة الإمبراطورية الفرنسية

(٤)إنشاء المجمع العلمي المصري

ـ لقد تم إنشاء المجمع العلمي المصري بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٨م وذلك على غرار المجمع العلمي الفرنسي وكان يهدف إلى ترقية ونشر التنوير في مصر وبحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر.

ـ هذا ويتكون المجمع من أربع شعب الرياضيات والفيزياء والاقتصاد السياسي والأدب والفنون وقد فتح المجمع أبوابه لكل المصريين ودارت فيه الحوارات بين علماء الحملة وعلماء الأزهر وكان نابليون يقول:(الأزهر هو السوربون في مصر ولابد أن نعامله على هذا الأساس).

ـ ولعل أكبر الآثار وأخلدها ما تركه المجمع في سنواته الأولى وهو كتاب «وصف مصر» والذي يعتبر أكبر موسوعة تضم تاريخ مصر وجغرافيتها وسكانها وحيواناتها وحشراتها وكل ما يتصل بها .

كتاب وصف مصر

ـ يعتبر كتاب وصف مصر أعظم عمل قدمته الحملة الفرنسية إلى مصر حيث رافقت الحملة مجموعة من العلماء في شتى مجالات العلوم في وقتها حيث بلغوا أكثر من ١٥٠ عالما وأكثر من ٢٠٠٠ متخصص من خيرة الفنانين والرسامين والتقنيين والكيميائيين وأطباء وفلكيين وغيرهم خلال أعوام ١٧٩٨ـ ١٨٠١م .

ـ وقد قام هؤلاء العلماء بعمل مجلد غطى جميع أرض مصر من شمالها إلى جنوبها خلال سنوات تواجدهم وقاموا برصد وتسجيل كل أمور الحياة في مصر آنذاك وكل ما يتعلق بالحضارة المصرية القديمة ليخرجوا إلى العالم ٢٠ جزءا لكتاب (وصف مصر) وقد تميز الكتاب بصور ولوحات شديدة الدقة والتفاصيل ويعتبر هذا الكتاب الآن أكبر وأشمل موسوعة للأراضي والآثار المصرية لكونها أكبر مخطوطة يدوية مكتوبة ومرسومة برسوم توضيحية تميزت بالدراسة العميقة للدارسين والأكاديميين الذين رافقوا نابليون فيما نشر الكتاب بين عامي ١٨٠٩ـ ١٨٢٩م كما تشتمل هذه المجموعة على صور ولوحات لأوجه النشاط المصري القديم للآثار المصرية وأيام الحملة نفسها والتاريخ الطبيعي المصري بالإضافة إلى توثيق كل مظاهر الحياة والكنوز التاريخية والفنية المصرية وتسجيل جميع جوانب الحياة النباتية .

ـ هذا ويعتبر نابليون أول من أحضر مطبعة عربية إلى مصر (في بولاق) وقد جلبها من الفاتيكان كما أقام "معهد مصر" في القاهرة بعد الاحتلال مباشرة وقد ضمّ هذا المعهد نخبة العلماء والخبراء الفرنسيين الذين قاموا بإجراء مسح جغرافي وميداني لمصر وراقبوا نهر النيل ورسموا خارطة جغرافية لمصر وقاموا بدراسة آثار مصر وفي عام ١٧٩٩ عثر العلماء الفرنسيون على حجر رشيد الشهير وتمكن العالم الفرنسي شامبليون من فك وشرح الكلمات والرموز المكتوبة باللغة الهيروغليفية القديمة .

فكرة قناة السويس في عهد نابليون

ـ لقد كان نابليون يحلم بحفر قناة السويس وعدم إضاعة قطرة واحدة من ماء النيل إذا قدر له أن يحكم مصر طويلا وأن يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية هائلة قائلا:"(فأنا لست أقل من الاسكندر الأكبر رغم حزني الشديد لأن الإسكندر غزا مصر في سن السادسة والعشرين بينما أنا في الثامنة والعشرين)".

ـ هذا وكان الخروج الوحيد لنابليون من القاهرة لسبب غير عسكري هو ذهابه ومجموعة من المهندسين يرأسهم مهندس يدعي لوبير للمعاينة الهندسية لموقع مشروع حفر قناة لربط البحرين الأحمر بالمتوسط والبدء في الحفر إلا أن لوبير أقنع نابليون بالعدول عن المشروع لأنه اكتشف أن مستوي البحر الأحمر أعلي من مستوي البحر الأبيض المتوسط وقال له إنه إذا حفرنا عند السويس فستغرق مصر كلها فعاد نابليون حزينا إلى القاهرة ولكن حلمه لم يمت .

۩"(وهكذا وأمام هدف نابليون الأسمى وهو إقامة إمبراطوريته في الشرق ونظرا لأن مصر هي العاصمة الطبيعية للأمة العربية كما كان يُطلق عليها ونواة إمبراطوريته المزمع قيامها في الشرق والتي لن تقم لها قائمة إلا باستقرار الأوضاع الأمنية للحملة فيها ناهيك عن ظروف الحملة السيئة للغاية بعد انقطاع صلتها البحرية بفرنسا بعد تحطم أسطولها البحري في معركة أبى قير البحرية في الأول من أغسطس عام ١٧٩٨م هذا إلى جانب التحالف التركي الانجليزى ضدها وأخطار المماليك وتحريضهم للمصريين على الثورة لذا فلم يجد نابليون مفر من سياسة التقرب والتودد إلى الشعب المصري بكافة السبل والوسائل الممكنة معتمدا على ذكائه في التوظيف السياسي للعنصر الديني لكسب ود المصريين واستمالتهم من أجل تحقيق الاستقرار المنشود للحملة في مصر ثم الانطلاق منها لاستكمال بناء إمبراطوريته التي ينوى إقامتها في الشرق فأعلن إسلامه واحترامه للعادات والتقاليد الإسلامية وأخذ يتردد على المساجد للصلاة واهتم بإقامة احتفالات رمضان والمولد النبوي الشريف وأقام الديوان تقربا للمصريين الذين سيشاركون في إدارة شئون بلادهم كما أقام المجمع العلمي من أجل مزيد من الحوارات والتقارب بين علماء الحملة وعلماء الأزهر إلا أن المصريين لم ينخدعوا لحظة لحيل وألاعيب نابليون فكان ردهم قويا مستمدا من قوة إيمانهم وحبهم لوطنهم وأقوى دليل على رجاحة عقولهم التي أبت الخداع والتضليل ليجد نابليون نفسه في نهاية المطاف عاجزا عن غزو عقولهم وقلوبهم بعدما نجح من قبل في غزو أرض بلادهم)".

۩"(تعليق المؤلف)"

ثورة القاهرة الأولى

٢١ تشرين الأول(أكتوبر) ١٧٩٨م

ــ لقد اندلعت ثورة القاهرة الأولى الأحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م ضد وجود الاحتلال الفرنسي في مصر وقد قادها الأزهر وشيوخه.

أسباب الثورة

ــ فرض الفرنسيين للضرائب الباهظة خاصة على التجار على عكس وعود نابليون عند قدومه إلى مصر وهى من أهم أسباب الثورة كما أوضح ذلك الجبرتي حيث قال "(هي تلك الضرائب الجديدة التي أمر نابليون في ٢٠ تشرين الأول ١٧٩٨م بفرضها على الأملاك والقضايا والمباني كالحمامات والحانات والحوانيت والمقاهي وطواحين الغلال والبيوت والغرف)" وكذلك هدم الفرنسيين للمباني والمساجد بحجة تحصين المدينة وتفتيشهم للبيوت والدكاكين بحثا عن أموال وهدم أبواب الحارات لتسهيل مطاردة رجال المقاومة وإعدام الفرنسيين لبعض الزعماء المصريين وعلى رأسهم محمد كريم وتحريض الإنجليز والمماليك والأتراك للمصريين على القيام بهذه الثورة وادعاء نابليون الإسلام وتجاهله العادات الشرقية ومحاولاته أن يسير الشعب المصري على خطوات الشعب الفرنسي بعاداته وشرائعه وأزيائه حيث اشتهر شرب الخمر وبيعه إلى العسكر كما أخذ الفرنسيون يخرجون النساء المسلمات مكشوفات الوجوه في الطرقات كما أمر نابليون بأن يلبس كل مصري شارة الثورة الفرنسية المثلثة الألوان فأثار روح الكراهية منهم وكذلك هزيمة الفرنسيين القاسية في أبى قير البحرية.

أحداث الثورة

ـ لقد قاد الأزهر وشيوخه الثورة وقام التجار بتمويلها وأقيمت المتاريس في المدن وعندما اشتعلت الثورة قتل الكثير من المصريين والفرنسيين ومنهم حاكم القاهرة ديبوى وقد واجه نابليون الثورة بالعنف وتمكن من حصر الثورة في القاهرة بعد أن وزع جنوده في ضواحيها وانتصر على الثوار ودخل جنوده الأزهر بخيولهم مما أثار الشعور الديني للمصريين.

ـ هذا وقد وصف الجبرتي أحداث الثورة الساخنة وعنف نابليون وإفراطه في استخدام القوة والبطش بالثوار قائلا"(وظهر يوم الاثنين ٢٢ تشرين الأول ١٧٩٨م ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجروا عليه المدافع فلما سقط عليهم ذلك ورأوه.. حتى تزعزعت الأركان.. وأصمت الآذان بصوتها الهائل.. وبعد هجعة الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل ومروا في الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كالشياطين أو جند إبليس وهدموا ما وجدوا من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا إلى الغورية وكرّوا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا إرسالا ركبانا ورجالا)



الجامع الأزهر

ـ وأصدر نابليون أمره بأن يباد كل من في الجامع حيث يقول الجبرتى:"(ودخلت الجند المسجد وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته.. ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني.. ورشقوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب.. وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه وأحدثت المدافع تخريبا في الجامع الأزهر والبيوت القائمة حوله مما زعزع صفوف الثوار فطلبوا الهدنة وانتهت المفاوضات بإلقاء السلاح ورفع المتاريس وبذلك انتهت ثورة القاهرة بعد أن مات في هذه اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم)".

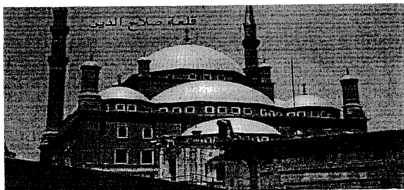
ـ وقد انتشر الجنود في الأحياء المجاورة ينهبون البيوت بحجة البحث عن السلاح ويعيثون في الأسواق الفساد وينفذون الاعتقالات مما اضطر كثير من سكّان الأحياء المجاورة إلى الفرار ناجين بأنفسهم وقد علق الجبرتي على ذلك قائلا: "(وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ويرغب الناس في سكناها ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع والفرنساويون لا يمرّون بها إلا في النادر ويحترمونها عن غيرها في الباطن والظاهر فانقلبت بهذه الحركة فيها الموضوع وانخفض على غير القياس المرفوع)".

ـ هذا ولم تقف المحنة عند احتلال الجامع الأزهر والاعتداء على حرمته بل وقع ثمة اعتداء محزن آخر على علمائه ففي غداة احتلال الجامع ذهب المشايخ إلى بيت سارى عسكر(نابليون) يرجون منه العفو وإصدار الأمان ليطمئن الناس وتزول مخاوفهم ثمّ رجوه أيضا في جلاء الجنود عن الجامع الأزهر فوعدهم بإجابة ملتمسهم ولكنه طلب إليهم التعريف عن

زعماء الفتنة من مشايخ الأزهر فأبدوا له أنهم لا يعرفون أحدا منهم فقال لهم إنهم يعرفونهم واحدا واحدا ثم أصدر الأمر بجلاء الجند عن الجامع ولكن بقيت منهم كتيبة تبلغ السبعين ترابط في الأحياء المجاورة لضبط النظام والسهر على حركات الطلاب والأهالي.

ـ وفي اليوم التالي بعث الفرنسيون رجالهم للبحث عن زعماء الفتنة "المتعممين" والقبض عليهم فانتهوا إلى القبض على الشيوخ الآتية أسماؤهم: الشيخ سلمان الجوسقي شيخ طائفة العميان، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ إسماعيل البراوي، وبحثوا عن الشيخ بدر المقدسي، ولكنه كان قد فرّ وسافر إلى الشام وكان هؤلاء جميعا من أواسط علماء الأزهر.

ـ هذا وقد أخذ الشيوخ المقبوض عليهم إلى بيت البكري حيث اعتقلوا هناك فلما علم كبار الشيوخ بما وقع ذهب وفد منهم وعلى رأسه الشيخ السادات إلى منزل نابليون والتمسوا منه العفو عن الشيوخ المقبوض عليهم فاستمهلوا وطلب إليهم التريث والانتظار ولبث المقبوض عليهم في بيت البكري إلى مساء يوم السبت ثم جاءت ثلّة من الجند وأخذتهم أولا إلى منزل "القومندان" بدرب الجماميز ثمّ هناك جرّدوا من ثيابهم ثمّ اقتيدوا إلى القلعة وسجنوا هناك.



نتائج الثورة

ــ لقد فرض نابليون الغرامات المالية علـــى التجـــار والعلمـــاء وألغى الديوان الوطني وأنشأ ديوانا آخر يضم بعـــض العناصـــر الغير مصرية كما أصدر في ٣ نوفمبر ١٧٩٨م أمرا بإعدام ١٣ من شيوخ وعلماء الأزهر الذين اشتركوا في الثورة ومصـــادرة ممتلكاتهم حيث اقتيدوا إلى القلعة وضربت أعناقهم ثم انتشـــلت أجسادهم إلى أماكن مجهولة ويقول لنا الجبرتي إنهم أعدموا في اليوم التالي رميا بالرصاص وألقيت جثثهم مـــن الســـور خلـــف القلعة وغاب أمرهم عن أكثر الناس أياما ٠

ــ وقد أشار الشيخ عبد الله الشرقاوى شـــيخ الجـــامع الأزهـــر ورئيس الديوان في ذلك الوقت إلى تلك الحوادث المحزنـــة فـــي كتابه "تحفة الناظرين" قائلا"(إن الفرنسيين قتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ومكثـــوا فيه يوما وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض العلماء ونهبـــوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودهم فيه أن أهـــل البلـــد ظنـــوا أن العسكر لا يدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثـــر البيوت التي حول الجامع ونشروا الكتـــب التـــي فـــي الخـــزائن يعتقدون أن بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهـــود الـــذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة)" ٠

ــ هذا وقد قدر نابليون في تقريره عدد من قتل من المصـــريين بنحو ألفين إلى ألفين وخمسمائة بينما قدر خســـائر الفرنســـيين بنحو الستين ٠

۩"(وهكذا كان رد نابليون عنيفا ظالمـا ضـد أهـالي القـاهرة الثائرين جراء نقضه ما قطعه على نفسه من عهود حيالهم حيث أمعن جنوده قتلا وسلبا ونهبا واعتداء على الحرمات والأمـاكن ودور العبادة حتى أن الجامع الأزهر لم يسلم من شرهم وحقدهم ليظهر صديق وحامى الإسلام على حقيقته!! بعد أن خلع قناعـه المزيف ذلك القناع الذي لم ينخدع به المصريون يوما)".



منشور نابليون إلى الشعب المصري بمناسبة إعادة الديوان العمومي (٢٤ ديسمبر ١٧٩٨م ـ ١٦ رجب ١٢١٣هـ)

ـ على الرغم من تمكن نابليون بونابرت من إخماد ثورة القاهرة الأولى وقيامه بإلغاء الديوان إلا أنه رأى ضرورة إعـادة نظـام الديوان مرة أخرى ولكن بشكل مغاير فشكل الديوان العام بشكل أوسع نطاقا من الديوان القديم وجعل أعضاءه ستين بدل عشرة

۩"(تعليق المؤلف)"

وأدخل فيه إلى جانب العلماء ممثلين للطوائف الأخرى من الجند والتجار والأقباط والأجانب وبلغ عدد العلماء فيه عشرة معظمهم من شيوخ الجامع الأزهر وهم: الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع، والشيخ محمد المهدي، والشيخ مصطفى الصاوي، والشيخ موسى السرسي، والشيخ محمد الأمير، والشيخ سليمان الفيومي، والشيخ أحمد العريشي، والشيخ إبراهيم المفتي، والشيخ صالح الحنبلي، والشيخ محمد الدواخلي، والشيخ مصطفي الدمنهوري، والشيخ خليل البكري، والسيد حسين الرفاعي، والشيخ الدمرداشي.

ــ وكان هذا الديوان العام الممثل لجميع الطوائف وكان يجتمع بحسب الاقتضاء فقط وقد اختير من بين أعضائه أربعة عشر عضوا يتألف منهم الديوان الخصوصي وهو الديوان العامل فعلا وقد قضى منشور التأسيس بأن يجتمع كل يوم للنظر في مصالح الناس وتوفير أسباب السعادة والرفاهية لهم وكان من بين أعضاء الديوان الخصوصي من العلماء خمسة وهم الشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ محمد المهدي، والشيخ مصطفي الصاوي، والشيخ سليمان الفيومي، والشيخ خليل البكري وقد أسندت رئاسة الديوان إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي وقد اضطلع الديوان الخصوصي بمهمته من تدبير شؤون القاهرة وحفظ الأمن فيها وإقامة العدل وتقدير الضرائب وغيرها وكان المحتلون يأخذون برأيه في معظم الشؤون.

نص منشور إعادة الديوان العمومي

ــ "(بسم الله الرحمن الرحيم من أمير الجيوش الفرنساوية خطابا إلى كافة أهالي مصر الخاص والعام.. نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وإدراك العواقب أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين في مصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والباري سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة على العباد فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم ولكن

حتى كان حصل عندي غيظ شديد وغم شديد بسبب تحريك الفتنة بينكم ولأجل ذلك أبطلت الديوان.
الذي كنت قد رتبتـــه لنظام البلد والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقـــدير الله تعـــالى وإرادته وقضائه ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة واعلموا أيضا أن الله قدر في الأول هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي وقدر في الأزل أني أجيء من المغـــرب إلـــى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به واعلموا أيضا أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيـــرة بوقـــوع الذي حصل وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المســـتقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق واعلموا أيضا أنني أقـــدر علـــى إظهار ما في نفس كل أحد منكم لأنني أعرف أحـــوال الشـــخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وإن كنت لا أتكلـــم ولا أنطـــق بالذي عنده ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل مـــا فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لايرد)".

۩"(وهكذا وجد نابليون نفسه في نهايـــة المطـــاف وفـــى ظـــل التهديدات الخارجية لأعداء الوجود الفرنسي في مصر مضـــطرا إلى إعادة الديوان الذي كان قد ألغاه في أعقاب ثـــورة القـــاهرة الأولى وذلك تقربا وتملقا للمصريين الذين وجد في استمالتهم أو على الأقل تحييدهم بارقة الأمل الوحيدة في مواجهـــة الظـــروف والتحديات الصعبة التي تواجهها الحملة بمصـــر فـــي الحاضـــر والمستقبل)".

۩"(تعليق المؤلف)"

حملة نابليون على الشام

١٠شباط(فبراير)ـ ٢٠ أيار(مايو)١٧٩٩م

أسباب حملة نابليون على سوريا (الشام)

ـ لقد تعددت الأسباب التي دفعت نابليون إلى توجيه حملته على سوريا والتي كانت تتألف في ذلك الوقت من(سوريا ولبنان وفلسطين والأردن)وهى تكمن في الآتي تحالف تركيا مع انجلترا وروسيا لإعلان الحرب لطرد الحملة الفرنسية من مصر واتجاه العثمانيين إلى مهاجمة مصر بجيشين إحداها في جزيرة رودس لغزو مصر من جهة الشمال والأخر في بلاد الشام للزحف على مصر من جهة الشرق وكذلك رغبة نابليون في الاستيلاء على مواني الشام ليحرم الأسطول الإنجليزي من التزود بالمؤن لذا فقد بادر نابليون بالهجوم على الشام.

نابليون يغزو فلسطين

ـ في١٠ شباط (فبراير) عام ١٧٩٩م توجه نابليون على رأس جيش فرنسي قوامه ١٣٠٠٠ جندي بحملة عسكرية نحو فلسطين هدفها احتلال فلسطين والشام وإخضاعهما للسيطرة الفرنسية ومن ثم القضاء على السلطنة والإمبراطورية العثمانية في اسطنبول مع أن الهدف المعلن والرئيسي للحملة هو استباق الخطر العثماني وإقامة منطقة عازلة بين مصر واسطنبول وقد اتبع الجيش الفرنسي طريق الساحل الفلسطيني من الجنوب نحو الشمال ولم يتوغل في داخل البلاد ربما لسهولة طرق المواصلات والإمدادات والقرب من البحر والموانئ الفلسطينية إذا احتاج الأمر وفي ٢٠ فبراير ١٧٩٩ احتل الجيش الفرنسي

مدينة العريش وبعدها غزة بعد مقاومة بسيطة للسكان المحليين وحاميتي المدينتين لم تستطع إيقاف الزحف الفرنسي.

ـ هذا وقد وصف الجبرتي احتفال الفرنسيين في القاهرة يوم الأربعاء آخر رمضان سنة ١٢١٣هـ بمناسبة استيلاء حملتهم على غزة وخان يونس من الأتراك قائلا"(وفي ذلك اليوم بعد العصر بنحو عشرين درجة حضر عدة من الفرنسيين ومعهم كبير منهم وهم راكبون الخيول وعدة من المشاة وفيهم جماعة لابسون عمائم بيض وجماعة أيضا ببرانيط ومعهم نفير ينفخ فيه وبيدهم بيارق وهي التي كانت عند المسلمين على قلعة العريش إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر فاصطفوا رجالا وركبانا بباب الجامع وطلبوا الشيخ الشرقاوي فسلموه تلك البيارق وأمروه برفعها ونصبها على منارات الجامع الأزهر فنصبوا بيرقين ملونين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين عند كل هلال بيرقا وعلى منارة أخرى بيرقا ثالثا وعند رفعهم ذلك ضربوا عدّة مدافع من القلعة بهجةً وسرورا وكان ذلك ليلة عيد الفطر)".

مذبحة يافا

٧ آزار(مارس)١٧٩٩م

ـ لم تصطدم الحملة الفرنسية على سوريا بدفاع عنيد فواصلت زحفها واستولت على خان يونس وغزة والرملة واللد ثم على يافا التي سقطت بأيدي الفرنسيين في ٧ مارس ١٧٩٩م بعد مقاومة جبارة وباسلة لسكان وحامية المدينة ضد قوات نابليون وبعد استسلام المدينة واحتلالها ارتكب نابليون مجزرة رهيبة ستظل وصمة عار في تاريخه الحربي إلى الأبد حيث قتل وأعدم ما يزيد عن ألفين من حامية يافا كما أعدم آلاف الأسرى الآخرين الذين سيقوا إلى شاطىء البحر حيث أعدموا جميعا رميا

بالرصاص أو طعنا بالسونكى ليصل عدد الذين قتلوا وأعدموا في يافا بنحو ٤٠٠٠ أسير من الجنود والمدنيين.

ـ هذا ويعلق "جوزيف مارى مواريه" على تلك المذبحة في مذكراته (مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر) قائلا:"(يافا بلدة سورية حصينة صغيرة كان يدافع عنها سبعة آلاف شخص وقد أجبرونا على مداهمتهم والهجوم عليهم ولاسيما بعد قتلهم مبعوثنا إليهم فأطلقنا على جميعهم النار فيما عدا مائتي مصري عدنا بهم إلى القاهرة)".

ـ هذا وقد أورد الجبرتي خطاب نابليون إلى المصريين بعد غزو يافا والذي جاء فيه"(سبحانك مالك الملك يفعل في ملكه ما يريده.. هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساوية لبندر يافا(تم) كل شيء بقضائه(قضاء الله) فلا ينفع الهروب من القدر المكتوب.. استقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على أحكام الله..)".

۩"(وهكذا خلع نابليون قناعه المزيف على أبواب يافا ليطل على العالم بوجهه الحقيقي القبيح المتعطش لسفك الدماء فعلى الرغم من استسلام الحامية والأهالي بيافا بعد أن أمنهم نابليون على حياتهم إلا أن ذلك لم يشفع لهم عند نابليون الذي أعدمهم جميعا بلا رحمة أو شفقة أو وازع من ضمير في تلك المذبحة الرهيبة والتي عرفت بمذبحة يافا البشرية والتي تعتبر خرقا فاضحا لكل الأعراف والمواثيق وقوانين الحروب المعترف بها دوليا لدرجة أن لوكارت الذي كتب تاريخ نابليون بعد أحداث يافا بثلاثين عاما تحدث عن بشاعتها قائلا:"(أن عظام الضحايا لاتزال وقت كتابة ترجمة نابليون موجودة على الشاطيء تحيل لون رماله إلى الأبيض)".

۩"(تعليق المؤلف)"

موقف بونابرت من بيت المقدس

ـ تذكر بعض المصادر التاريخية أن نابليون بونابرت قد زار بيت المقدس سنة ألف وسبعمائة وثمان وتسعين أي قبل وقت قصير من حملته العسكرية في فلسطين ٠

ـ هذا وقد قام أهل القدس بتحصين المدينة واستعدوا لملاقاة قوات نابليون وذلك بعد سقوط الرملة إذ أن سقوط الرملة يعتبر عادة إيذانا بالهجوم على القدس ولكن نابليون لم يتوجه إليها خشية التورط في الجبال المحيطة بها كما أن أهل بيت المقدس تصرفوا بحكمة حيث: ردوا على رسالة كانوا قد تلقوها من نابليون بتسليم المدينة المقدسة أن القدس فيها أماكن إسلامية مقدسة وكذلك أماكن مقدسة عند النصارى ولا يريدون أن تتأذى تلك الأماكن من الحرب ثم إنهم تابعون لولاية عكا فان سيطر عليها أعطى الأوامر للقدس فقد كان أهل بيت المقدس واثقين من صمود وصلابة عكا لذلك حاولوا كسب الوقت لصالحهم ٠

سقوط حيفا والزحف إلى عكا

١٧ آزار(مارس) ١٧٩٩م

ـ بعد احتلال مدينة يافا تابع نابليون وجيشه تقدمهم شمالا عبر طريق الساحل الفلسطيني والهدف احتلال مدينة عكا وإخضاع واليها أحمد باشا الجزار حاكم عكا وخلال تقدم الجيش الفرنسي شمالا واجهته صعوبات جمّة كالأمراض والتعب وقلة المؤن والعتاد وحتى خسارة عسكرية بالقرب من نابلس وفقط بفضل قوة الدعم الفرنسية التي وصلت من مصر لمساندة نابليون بقيادة الجنرال كليبر استطاع الجيش الفرنسي مواصلة الطريق واحتلال مدينة حيفا في ١٧ مارس ١٧٩٩ وقوة الدعم العسكري بقيادة كليبر هي التي استطاعت في الواقع احتلال وإخضاع

مدينة حيفا حيث أن هذه القوة التي وصلت عن طريق البحر سبقت نابليون وقوته بالوصول لمشارف حيفا .

ـ ولم تلق قوات كليبر في الواقع مقاومة تذكر من قِبل سكان المدينة بعد أن نزح عنها الجزار وجلب مدافع وحامية المدينة إلى عكا حيث اكتفى سكان حيفا بإيفاد أحد سكان المدينة وكان من أصل أوروبي لانتظار قدوم الفرنسيين خارج بوابات ومداخل المدينة وقامَ بتسليم الجنرال كليبر مفاتيح المدينة ثم انضم نابليون وقوته إلى قوات كليبر لتتشكل قوة مشتركة للجيش الفرنسي بقيادة نابليون وكليبر قوامها ١٢ ألف جندى متوجهين نحو هدفهم التالي والصعب وهو احتلال مدينة عكا وإخضاع واليها أحمد باشا الجزار .

تاريخ عكا

ـ لقد تأسست مدينة عكا على يد إحدى القبائل الكنعانية المعروفة بالجرجاشيين في الألف الثالث قبل الميلاد وأطلقوا عليها اسم عكو أي(الرمل الحار) كما حملت مدينة عكا العديد من الأسماء عبر عصورها التاريخية وهى مدينة عريقة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في نهاية الرأس الشمالي لخليج عكا وقد كان لهذا الموقع أهمية في جعل مدينة عكا تتعرض لأحداث جسام عبر تاريخها وتعتبر السيطرة عليها نقطة انطلاق هامة لاحتلال سائر فلسطين وتؤكد أسوار مدينة عكا وحصونها وقلاعها وأبراجها المحيطة بها من جهتي البر والبحر على الأهمية الدفاعية في وجه الطامعين من الأقوام المختلفة .

ـ وفي خلال القرن الرابع للميلاد غزا الاسكندر الأكبر هذه المدينة ثم فتحها شرحبيل بن حسنة سنة ٦٣٧م (١٦هـ) كما أنشأ فيها معاوية بن أبى سفيان دارا لصناعة السفن الحربية"ترسانة بحرية" سنة ٦٤٠ م (٢٠ هـ) .

ـ وقد مر على مدينة عكا الغزاة من العصور القديمة حتى العهد العثماني ففي عام ١١٠٤ غزا الفرنج عكا وكانت المدينة مرسى مهم في هذه المنطقة وقام سلطان مصر المملوكي الأشرف خليل بتحريرها من الصليبيين وطردهم منها سنة ١٢٩١ فيما عـرف بفتح عكا وقد حكمها العثمانيون من عام ١٥١٧ حتـى ١٩١٨ أي مدة ٤٠١ سنة استعادت عكا خلالها مكانتها.

ـ هذا وقد ازدهرت عكا في أيام ظاهر العمر أمير الجليل فـي الفترة ١٧٤٥ – ١٧٧٦ حيث بنى سورًا حول المدينة من الجهة الشرقية لحمايتها من أي هجوم برّي كما بنى قلعة في الشـمال الغربي من المدينة وأقام بقرب القلعة مبنـى السـرايا (مركـز السلطة) كما قام ظاهر العمر بترميم الخانات وشيد سوقا تجارية في مركز المدينة وأعاد ترميم ميناء عكـا وحصّـن أسـوارها الغربية ونتيجة لكل ذلك ازدهرت المدينة مجـددًا مـن الناحيـة الاقتصادية.

ـ وفى عام ١٧٦٦م أصبح الجزار حاكما علـى عكـا فواصـل المشروع العمراني الذي بدأه سلفه بقوة أكبر حيث بنـى جـامع الجزار والذي يعتبر أجمل جامع في البلاد بعد قبة الصخرة فـي القدس وقد أطلق عليه اسمه فصار يُعرف بجامع أحمـد باشـا الجزار.



ـ كما بنى خان العمدان والجامع التركي وأقام مساجد وخانات أخرى وحصّن أسوار المدينة على أساسات الأسوار الصليبية لحماية المدينة اثنان من أبوابها فقط يعودان للعصر الصليبي (القرن الثاني عشر) وهما الباب البري والباب البحري وعند الانطلاق من الباب البري يمكننا الدوران حول الحصون المختلفة وخلال القرن التاسع عشر توالى على عكا عدة حكّام حيث حكمها سليمان باشا الذي خلف الجزار بين (١٨٠٥ - ١٨١٨)م.

ـ هذا وتعتبر البلدة القديمة محط الأنظار في عكا فهي ما زالت تحافظ على الكثير من مظاهر الفترات الثلاث الأخيرة من تاريخها ألا وهي الفترة الصليبية والعربية والتركية وقد أعاد الأتراك بناءها فوق أطلال المدينة الصليبية القديمة التي أدى طول الهجر والتراب والرمال إلى دفنها وتتمتع جميع أسواق البلدة القديمة وحوانيتها بألوان المدينة الشرقية الزاهية.

أحمد باشا الجزار
(١٧٣٤ـ ١٨٠٤) م

ـ لقد سرد عبد العزيز جمال الدين في مقدمة كتاب من إعداده وتحقيقه(قصة أحمد باشا الجزار بين مصر والشام وحوادثه مع نابليون بونابرت) ملخصا لتأسيس الدولة العثمانية واعتماد السلاطين على تجنيد أبناء رعاياها المسيحيين من شرقي أوروبا بعد انتزاع الأطفال والنزول بهم إلى مستوى الرق وتأهيلهم عسكريا حتى احتلوا بمرور الوقت مناصب عليا أصبحت كأنها حكر يشغلها إما مسيحي أو عبد يقتنى ومن هؤلاء الجزار أو أحمد البوشناقي الذي حكم ساحل فلسطين والشام أكثر من ٣٠ عاما ولولا وفاته لتولى حكم مصر قبل محمد علي الذي حكم مصر بين عامي ١٨٠٥ و١٩٤٨.

ــ وقــال جمــال الــدين أن أحمــد باشــا الجــزار أو أحمــد البوشناقى(الجزار) قد ولد في البوسنة لأســرة مســيحية عــام ١٧٣٤م وهرب إلى القسطنطينية في مطلع شبابه وأرجع ثلاثــة مؤرخين هروبه إلى اعتدائه على زوجــة أخيــه أو اغتصــابه لخطيبة أخيه أو بسبب جريمة قتل وباعه تــاجر رقيــق للبــاب العالي حيث اعتنق الإسلام بإرادته لعدم استطاعته الحصول على أي مركز ذي نفوذ بطريقة أخرى ثم جاء إلى القاهرة مع قافلــة عائدة من الحج وانضم لخدمة أحــد المســئولين فــي البحيــرة بشمالي مصر وتزوج من امرأة مصرية من أصول حبشية.

ــ وعندما قام البدو بقتل هذا المسئول انتقم البوشناقي بغارات متوالية عليهم حيث أعد كمينا ذبح فيه أكثر من ٧٠ بدويا بينهم عدة شيوخ وقادة أقوياء للبدو حين ذاك فاكتسب لقب "الجــزار" نظرا لقوته وعدم تركه لأحياء أو ناجين خلفــه عــدى الأطفــال والإناث وكبار السن .

ــ هذا وتشير بعض المراجع التاريخية أن البدو انتقموا منه بعد ذلك بقتل زوجته وابنته ولكنهم لم يتمكنوا من قتل ابنــه "داوود" حيث أنه تمكن من الهَرب وكما جاء على لِسان بُناة مسجد أحمد باشا الجزار بمدينة عكا أن "داوود" تعارك مع أبيه أثنــاء بنــاء المسجد وعاد إلى القاهرة وأقام مع عائلة أمه وتزوج هناك .

ــ عمل أحمد باشا الجزار عند علي بك الكبير الذي حكم مصــر بين عامي ١٧٦٨م و١٧٧٣م وقد بدأ خدماته لسيده بأن قدم له رؤوس أربعة يكرههم من شيوخ البدو فاستخدمه على بك الكبير للتخلص من معارضيه ومنافسيه ومنحه لقب بــك وعلــى أثــر انقلاب محمد بك أبو الذهب العسكري على حاكمها السابق علــي بك الكبير هرب الجزار حيث وجد صعوبة مقاومة انقــلاب أبــو الذهب حين ذاك بسبب تواجد الكثير من الخونة داخل النظام .

ـ ذهب الجزار إلى جبل لبنان متغاضيا كرهه للدروز حيث كان يسيطر الأمير يوسف الشهابي زعيم الدروز حاكم ساحل لبنان ومدن حمص وحلب فكلفه الأمير يوسف حفظ بيروت فبنى الجزار سورا قويا حول المدينة من الحجارة الأثرية التي خلفها زلزال ١١٥٥م ثم ارتكب سلوكا مشينا بالانقلاب على صديقه الأمير يوسف الشهابي وبمساعدة ظاهر العمر حاكم منطقة الجليل بفلسطين والأسطول الزوسي تمكن الأمير الشهابي من استعادة بيروت فما كان من الجزار إلا أن جمع أموالا وهرب بها عائدا إلى السلطان العثماني الذي فوضه على ولاية صيدا ومنحه لقب باشا .

ـ ظل لقب "الجزار" الذي حمله أحمد البوشناقي من مصر علامة عليه إذ سيطر على القوى المحلية والعشائرية بقسوة وجند المرتزقة والمغاربة من تونس والجزائر والألبان والبوسنيين وسعى لتحقيق الحلم بحكم فلسطين وجنوب سورية ولبنان بل وطمع في حكم مصر إلا أن السلطان كان يراقب توسعاته ونفوذه وطموحاته فحاول أكثر من مرة تنحيته أو نقله إلى ولاية بعيدة مثل البوسنة لكنه كان يرفض فأغراه بالتوجه إلى مصر عام ١٧٨٤م لمحاربة المملوكين مراد وإبراهيم وكتابة تقرير عن أوضاع البلاد لكنه تجنب الفخ .

ـ هذا وقد نجح الجزار في تحقيق الاستقلال بأجزاء من بلاد الشام بدون إعلان هذا الاستقلال عن السلطنة كما أعد للسلطان تقريرا عن كيفية غزو مصر طالب فيه بأهمية ضبط إيرادات مصر ومصروفاتها وأن يكون قائد الحملة قد سبقت له الإقامة في مصر والمواصفات التي قدمها الجزار لقائد الحملة وحاكمها المنتظر لا تنطبق إلا على شخصه .

ـ هذا وقد حكم أحمد باشا الجزار والي عكا أولا ثم والي دمشق الشام ثانيا بالحديد والنار أو إن جاز التعبير بقبضة حديدية عانى منها الأهالي الأمرين كما كان الوضع الاقتصادي في عهده صعبا نتيجة لسياسة الاحتكار الاقتصادي الذي فرضه على البلاد .

ظلم وجبروت الجزار

ـ هذا وقد وصف الأمير أحمد حيدر الشهابي في مخطوطة تنشر لأول مرة في كتاب من إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين (قصة أحمد باشا الجزار بين مصر والشام وحوادثه مع نابليون بونابرت) مظالم الجزار وما سفك من دماء العوالم"(٠٠ أتى إلى القسطنطينية ٠٠ واغتنى بصناعة الحلاقة وما سفك من دماء العوالم... لكنه بعد أن تولى حكم بلاد الشام انقلبت طباعه وتغيرت أحواله... حتى صار كالوحش الضاري والسبع الكاسر إذ أمر عسكر المغاربة بإخراج المسجونين وترحيلهم خارج عكا وقتلهم جميعا ففعلوا)" .

ـ ويعلق قائلا: "(كان يوما مهولا لا يسمع فيه غير أصوات العويل والبكاء والندب من الأمهات والعيال والأولاد والبنات والإخوة الذين ترملوا وتيتموا وكذلك عويل المقتولين وصياحهم ولا ترى فيه غير جثث القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد صايرين طعاما لطير السماء وفريسة لوحوش الأرض وعند المساء أمر المنادي في شوارع عكا كل من له ميت يخرج إلى دفنه على الصمت وأن كل امرأة أبدت عويلا أو بكاء تقتل حالا فضلا عن الرجال)".

الحياة الثقافية فـــي عهد الجزار
اهتمام الجزار بالجانب المعماري

ـ لقد شاب الحياة الثقافية الغموض ولم تزدهر في عهد الجزار ازدهارا كافيا ونظرا لأهمية المناطق التي حكمها الجــزار مــن الناحية الدينية خاصة فلسطين فقد كثر فيها العلماء الذين كــان لهم دورٌ بارز في الحياة الثقافية ولم يكن بمقدور الجزار إيقــاف مسيرتهم التعليمية والثقافية وذلك لقوة مكانتهم الاجتماعية بين السكان ولقدرتهم على الشكوى منه لــدى البــاب العــالي فــي الآستانة.

ـ ورغم سياسة الجزار التعسفيّة واهتمامــه بالسياســة علــى حساب الأوجه الحضارية الأخرى نجد أن أهم معلم ثقــافي قــام بإنشائه هو بناء جامع فخم كبير يُعد آيةً في الجمال ويعتبر مــن أبدع المظاهر المعمارية في العهد العثماني ببلاد الشام وأطلــق عليه اسمه فصار يُعرف بجامع أحمد باشا الجزار .

ـ ولم يكتفِ الجزار بذلك فألحق بجامعه هذا مدرســة لتــدريس العلوم الشرعية والفقهية كما ضم إليه مكتبة حملت اسم المكتبة الأحمدية والتي حوت أكثر من ثلاثمائة كتاب كما وُجِد في عكــا نهاية القرن الثامن عشر خمسة أو ستة مســاجد قــام الجــزار بإنشاء نصفها مما يبيّن عدد سكان المدينة الكبير زمن حكمه .

ـ والذي دعا الجزار لبناء هذا المســجد الــذي حمــل اســمه ومرفقاته هو ما تمتع به من روح عالية ورغبــة أكيــدة فــي مضاهاة غيره من السلاطين والحكام العثمانيين فأنشــأ مجمعــه الخيري هذا على غرار تلك المجمعات العثمانية المنتشــرة فــي تركيا ومصر أكثر من أي مكانٍ آخر في العالم حيث انبثقت هــذه الرغبة من حب الجزار وشغفه الخاص بالعمارة والبناء ســواء كان ذلك في العمارة العسكرية أو المدنية حتى أنّه كان يُشــرف

بنفسه على وضع المخططات وعلى سير العمل وهذا ما تؤكـده تلك المخلفات المعمارية التي تركها خاصةً في مدينة عكا والتي لا يوجد لها مثيلا في فلسطين وبلاد الشام عامةً .

ـ ويبدو أن السبب الذي دعا الجزار لبناء هذا المجمـع ومـن ضمنه المسجد هو رغبته في فعل الخير والتقرب إلـى الله عـز وجل بعد كل ما اقترفته يداه من ظلمٍ لرعاياه وقد خصّ الجـزار عمائره هذه بكل أنواع الرعاية حيث أوقف لها الأوقـاف لتـدر عليها الأموال حتى تبقى محافظةً على بقائها واستمراريتها فـي أداء رسالتها التي اختطها لها ويتضح ذلك بأن أوقـف عليهـا الأراضي والبيوت والحمامات والخانات كي تبقي إلى الأبد .

ـ ورغم مظالم الجزار وجوره أثناء فترة حكمه فـإن المسـجد الذي ابتناه ما زال المؤمنون يؤمونه حتى يومنا وهـذا يُحسـب للجزار رغم طول الفترة الزمنية ومع أن الحكام الذين يوصفون بالقسوة والجبروت كثيرا ما يحاول النـاس نسـيان ماضـيهم وأفعالهم إلا أن هذا المسجد خلدَ اسم الجزار في ذاكرة سكان هذه البلاد.

ـ ومما يدل على أن الجزار كان بنّاء عظيما أنه بنـى سـورين لعكا وجعل منها أقوى حصن في المنطقة كلها كما بنى الأبـراج وأنشأ المباني وبنى أيضا سوقا وحمّاما وثكنة عسكرية وخانـا كبيرا سُميَ "خان المعمدان كما أنشأ في عكا خمسة عشر سبيلا لسد حاجيات السكان من المياه ولم يكتفِ الجـزار بـذلك فبنـى الديوان خانة في قلعة عكا وعمِلَ على زرع الحدائق الغنّاء فـي عكا لتجميل المدينة .

ـ هذا وكان السلطان العثماني قد أصدر فرمانا بتوليـة الجـزار حكم مصر وهو الأمر الذي سـجله (الفـونس جيـز) القنصـل الفرنسي في طرابلس حيث كتب في الخامس من مـارس (آذار) ١٨٠٤م عن وصول السعاة من الآستانة إلى طرابلس للحصـول

على خيول وكانوا يحملون إلى الجزار فرمان تعيينه واليا على مصر إلا أن الجزار قد توفى يوم٢٣ أبريل(نيسان) ١٨٠٤م٠

استعدادات الجزار

ـ كان السلطان العثماني سليم الثالث(١٧٨٩ـ١٨٠٧)م قد أوكل إلى أحمد باشا الجزار (١٧٧٥ـ ١٨٠٤)م حاكم ووالي عكا والمنطقة مهمة الدفاع عن مدينة عكا وكان الجزار قد تجاوز السبعين من عمره والذي قضى منه ما يقارب الخمسين سنة في ساحات المعارك والقتال في خدمة الدولة العثمانية ومن حنكة هذا القائد أنه منذ أن سمع بنزول الجيش الفرنسي على شواطىء مصر تحسب لذلك فاهتم بتحصين المدينة وبناء أسوار ضخمة حولها لمواجهة غزو الفرنسيين المتوقع وهو الأمر الذي ذكره الأمير أحمد حيدر الشهابي حيث أوضح أن الجزار حين سمع بنزول الفرنسيين إلى السواحل المصرية أول يوليو(تموز) ١٧٩٨م "(تحسب جدا لذلك وشرع يهتم في تحصين عكا ويستحضر للحصار٠٠ فأمر بتحصين المدن التي تحت حكمه وأمر بخروج النصارى من جميع بلاده)"٠

ـ كما اهتم الجزار ببناء مرابض للمدفعية وتشييد خندق حول الأسوار بعمق ثمانية أمتار وتذكر المصادر التاريخية أن عدد المدافع على أسوار عكا بلغ ما يقارب ٢٥٠ مدفعا أثناء الحصار الفرنسي بالإضافة إلى المدافع الكبيرة والآلاف من القنابل وكذلك كميات كبيرة من البارود هذا بالإضافة لاهتمام الجزار بجمع كميات كبيرة من الغذاء والقمح والأرز والمؤن وتوفير كميات كافية من المياه في الفترة التي سبقت وصول الجيش الفرنسي إلى عكا وذلك استعدادا لوقت حصار الفرنسيين كما نادى الجزار في الناس ووقف فيهم خطيبا يحثهم على الجهاد والنصر أو الشهادة فاستجاب له أهل المدينة بأسرهم وتجهيزوا لمقاومة الحملة٠

حصار عكا

١٨ أذار(مارس) ــ ٢٠ أيار(مايو) ١٧٩٩م

ــ في ١٨مارس سنة ١٧٩٩ وصل الجيش الفرنسي لمشارف مدينة عكا وفرض نابليون الحصار حول المدينة من كافة الجهات البرية تلك المدينة التي كانت تعتبر المعقل المقاوم الأخير قبل أن يصبح الشرق بأسره تحت سيطرته وقد تركزت قيادة الجيش الفرنسي أثناء حصار نابليون لعكا على هضبة إلى الشرق من مدينة عكا تدعى بتل الفخار(عرفت فيما بعد بتل نابليون)بينما تمركزت في الميناء قوة بحرية إنجليزية لمساندة الجزار٠

ــ هذا وقد أورد الأمير أحمد حيدر الشهابي فرمانا عثمانيا يفيد التحالف مع قائد الأسطول الإنجليزي ضد الجيش الفرنسي"(٠٠إلي جميع المدن من السلطان سليم خان يخبر بالاتحاد بين الإنكليز والإسلام على الفرنساوية اللئام... لا يخفاكم أن بهذه السنة قد هجم الكفرة والطغاة البغاة الفرنساوية على أخذ الإسكندرية ومصر القاهرة وما يليها والآن وقد اختلسوا يافا وغزة والرملة وتوابعهم وعلى عزمهم الغائب الفاسد الخايب الغير صايب تدمير أمة المسلمين)".

ــ ويسجل الفرمان أن الصداقة تقتضي تعاون"(سعادة أخينا المحترم سلطان الإنكليز المفخم المتحد معنا بالارتباط بالسوية على تدمير الأمة الفرنساوية كما يسجل فرمان آخر موجه إلى سائر البلدان أن الفرنسيين كفار وملحدون وماكرون.. هذه الفرقة الملعونة قد فارقت جميع الأديان والملل... فكيف لا يكون فرضا على كل واحد من المسلمين إبداء المروة)".

المواجهة الدامية

بونابرت والجزار

ـ هذا وكان نابليون الذي كسب معاركه في مصر وفلسطين حتى الآن في يسر ودون صعوبة متأكدا أن هذه المدينة لن تصمد أمامه أكثر من يومين اثنين لذا فقد بادر إلى إرسال رسالة اتسمت بالكبرياء والعجرفة إلى القائد العثماني الهرم قال فيها "(إنني الآن أمام قلاع عكا ولن يكسبني قتل شخص هرم مثلك شيئا لذا فأنا لا أرغب في الدخول معكم في معركة كن صديقا وسلم هذه المدينة دون إراقة الدماء)".

ـ هذا ولم يتأخر جواب القائد العثماني ولكنه لم يكن الجواب الذي توقعه نابليون حيث قال القائد العثماني أحمد باشا الجزار في رسالته الجوابية"(نحمد الله تعالى لكوننا قادرين على حمل السلاح وقادرين على الدفاع إنني أنوي أن أقضي الأيام القليلة الباقية من عمري في الجهاد ضد الكفار)."

ـ وعندما تسلم نابليون هذا الجواب الذي قطع أمله في الدخول إلى المدينة ظافرا دون قتال التفت إلى ضباطه وقال لهم بضيق ونفاد صبر:"(لقد أصبح من الواضح الآن أن هذا الشيخ الهرم سيكون سببا في ضياع بضعة أيام منا ولكن لا بأس لا تقلقوا سنكون بعد يومين في وسط هذه المدينة سنلقنهم درسا لن ينسوه)".

بدء المعركة

ــ في اليوم الثاني ١٩ مارس ١٧٩٩م بدأت المعركة وبدأت المدافع الفرنسية تصب حممها على قلاع المدينة وأسوارها ولكن لم تتحقق توقعات نابليون في النصر السريع حيث أبدت الحامية العثمانية لمدينة عكا شجاعة فائقة في القتال حتى أن الجزار بنفسه كان يبادر بشن غارات خارج الأسوار على الرغم من تفوق الجيش الفرنسي من ناحية العدد والعتاد الحربي ولا سيما في عدد المدافع التي كانت تصب حممها على المدينة الصغيرة المحاصرة٠

ــ مرت الأيام والأسابيع والمعركة الضروس قائمة والمدينة صامدة صمود الأبطال ويقوم أفراد الحامية في الليل بسد الثغرات التي تحدثها المدافع في النهار بجدران الأسوار وبدأت أحلام نابليون الذي كان قد اغتر بانتصاراته المتلاحقة على النمسا وفي مصر وفلسطين تتبخر شيئا فشيئا٠

نابليون يطلب المفاوضات

ــ أخذ نابليون يعقد مشاورات عدة مع ضباطه ثم قرر إرسال رسالة إلى القائد العثماني يقترح عليه إجراء المفاوضات بين الطرفين فقبل القائد العثماني الطلب وذكر أنه بانتظار وفد المفاوضة وجاء وفد المفاوضة وجاء الوفد الفرنسي وعلى رأسه ضابط كبير كان هذا الضابط يحمل رسالة شفوية من قائده الجنرال نابليون وملخصها أنه لا فائدة من المقاومة وأنه من الأفضل الاتفاق على شروط جيدة للصلح لإنهاء المزيد من سفك الدماء لذا فإن القائد الفرنسي سيقبل بخروج القائد العثماني وخروج حاميته كذلك مع جميع أسلحتهم دون أن يتعرض لهم أحد ويسمح لهم بالتوجه إلى المكان الذي يريدونه وكل ذلك في مقابل إنهاء المقاومة٠

شجاعة الجزار وفشل المفاوضات

ـ هذا وقد استمع أحمد باشا الجزار لرئيس الوفد الفرنسي حتى أكمل كلامه وبعد صمت قصير قال له"(لم تقم الدولة العلية العثمانية بتعييني وزيرا وقائدا لكي أقوم بتسليم هذه المدينة إليكم إنني أحمد باشا الجزار لن أسلم لكم شبرا من هذه المدينة حتى أبلغ مرتبة الشهادة)".

ـ لقد كان هذا جوابا حاسما لا يتحمل المزيد من النقاش ولا أي مناورة من مناورات المفاوضات لذا فقد رجع الوفد الفرنسي دون الوصول إلى اتفاق وبمجرد أن نقل الوفد جواب القائد العثماني إلى نابليون حتى جن جنونه وبدأ يفكر في وضع خطة جديدة تؤمّن كسر مقاومة الحامية العثمانية فأمر بأن يتم وضع عشرات بل المئات من المشاعل ليلا على مقربة من أسوار المدينة لكي يستمر قصف الأسوار ليلا ونهارا دون توقف لكي لا يعطي فرصة راحة للمدافعين ولكي يدك هذه الأسوار دكا ويفتح فيها الثغرات والفجوات.


أسوار عكا الصامدة

القصف الوحشي واستبسال الحامية

ـ وتم البدء بتنفيذ الخطة الجديدة وبدأت المدافع تهدر ليلا ونهارا بقصف مستمر لا ينقطع ونجح القصف الشديد في هدم بعض أجزاء من سور المدينة وهنا أمر نابليون جنوده بالهجوم ودخول المدينة من هذه الأماكن ودق نفير الهجوم في الجانب الفرنسي واندفع الجنود الفرنسيون يريدون اقتحام الأسوار من هذه الفجوات والأقسام المتهدمة ولكنهم قوبلوا بحراب وسيوف ورصاص الحامية العثمانية التي كانت تنتظر مثل هذا الهجوم والتحموا مع الغزاة وجها لوجه وعلى رأسهم قائدهم أحمد باشا الجزار الذي كان يحمل مسدسين مسدس في كل يد ويشجع جنوده على الصمود فارتفعت معنوياتهم وقد أسفر الهجوم عن تراجع المهاجمين بعد أن تكبدوا خسائر فادحة وتكرر الهجوم في الأيام التي تلت يوم الهجوم الأول ولكن النتيجة لم تتغير ففي كل هجوم كان الفرنسيون يتكبدون خسائر كبيرة في الأرواح ومرت الأيام والأسابيع على هذا المنوال وبدأ اليأس يستولى على الجانب الفرنسي لأن خسائره كانت تزداد على الدوام حتى كادت تأكل نصف الجنود .

ـ وخلال حصار عكا نجح جنود نابليون بالاشتباك وإلحاق هزيمة بقوات الجيش العثماني القادمة من دمشق بمعركة قرب طبريا وكانت تلك القوات قادمة لمساعدة ومناصرة الجزار وفي هذه الفترة القصيرة تمكنت القوات الفرنسية من احتلال طبريا والناصرة وصفد وخلال فترة حصار عكا التي استغرقت أكثر من ٦٠ يوما استطاع الفرنسيون السيطرة وبسط نفوذهم على منطقة الجليل الغربي والتي امتدت من حيفا جنوبا وحتى مدينة صور شمالا ومن البحر حتى شفا عمرو شرقا وبعد معركة جبل تابور في ١٦ أبريل ١٧٩٩م امتدت منطقة نفوذ الجيش الفرنسي لتشمل بقية مناطق الجليل ومرج ابن عامر.

ـ أما ميناء الطنطورة فقد كان الميناء الوحيد على الساحل الفلسطيني الشمالي الذي خضع لاحتلال الفرنسيين والذي خدم الجنود الفرنسيين لمغادرة سفنهم ليافا ولاستقبال العتاد والمؤن والمحافظة على اتصالهم بيافا وغزة أما ميناء حيفا فقد كان مغلقا أمام الفرنسيين نتيجة الحصار الذي فرضه الأسطول الإنجليزي حوله بينما كان ميناء عكا تحت سيطرة قوات الجزار والأسطول الإنجليزي بقيادة الجنرال سيدني سميث الذي ساعد الجزار بتصديه لنابليون وبالدفاع عن عكا ٠

دور أهل حماة (بالشام) أثناء معركة عكا

من واقع سجلات المحكمة الشرعية في حماة

(الجزار يصف معركة عكا)

ـ لقد كان لأهل الشام دور كبير أثناء معركة عكا حيث ساعدوا الجزار ورجاله ودعموهم بالأسلحة والبارود حيث كان لبارود حماة دورا كبيرا في انتصار الجزار وهزيمة نابليون وقد حفظت سجلات المحاكم الشرعية في حماة بعض الرسائل التي أرسلها أحمد باشا الجزار أثناء حربه مع نابليون ومنها تلك الرسالة للجزار والتي يصف فيها حربه الضروس مع نابليون وكر وفر الفرنسيين وخسائرهم الفادحة على يد المجاهدين ويبشر فيها بالنصر القريب وبأن المجاهدين في رعاية الله وأمنه وأخيرا وفى نهاية رسالته طلبه المدد من ذخائر وبارود أهل حماة ٠

نص رسالة الجزار

"(إنه في غرة محرم الشريف في سنة ثلاث عشر بعد المائتين والألف تجمعت من بقية الفرنسيس الكفار الموجودين في مصر المحروسة والإسكندرية وجهزت الدولة العلية ردا عن بلاد

الشاميين وطرابلس الوزير الجسور والليث الغيور وبعد رابع شهر من تاريخه عقد الحرب مابيننا وبين الفرنسيين الكفرة حرب شديدة مع ضرب مدافع وقنابل وبارود واستعمال كافة أدوات الحروب وقد كنا حاضرين لهم لغومة في محل المعركة ففي ليلة الأربعاء هجموا بالسلالم على الأسوار ودخل منهم بمقدار خمسمائة كافر وصبرنا عليه إلى حين دخولهم وبادرناهم بالسيف من كل جانب إلى حين هلكوا جميعهم من داخل السور والذين خلفهم هلكوا من البارود وبقي الحرب قائم ليلة وإلى ربع نهار وإلى الأربعاء ثم ليلة الخميس هجموا مرة ثانية وانكسروا ثم بمحل كسرتهم قوسناهم أول لغم قتل وجرح منهم خلق لا يحصى والحرب قائم نهار الخميس ثم ليلة الجمعة هجموا وانكسروا واندبحوا يوم الجمعة على الصباح هجموا بكامل جموعهم وجماهيرهم وصار الحرب العظيم مابيننا وبينهم مقدار أربع ساعات فانكسروا واندبحوا ثم عقد الشر بيننا وبينهم بالمدافع والقنابر إلى وقت الظهر ثم هجموا هجمة قوية واندبحوا وبمجمل كسرتهم تجمهروا بمحل المعركة فوق اللغم وحالاً قوسنا بهم وصاروا يتطايرون شبه الطيور والحاصل بهذه الواقعات هلك منهم أربعة آلاف كافر ماعدا المجاريح والمحروقين وهذا بقدر الله تعالى وحفظه وكرمه وعنايته ومرحمة وشفقة على جيوش المسلمين غنم المسلمون سلاح الكفرة المشركين لأنهم أغلبهم كانوا تركوا سلاحهم وفروا هاربين فلله الحمد والمنة على هذه النعم فاقتضى الآن إخباركم بذلك لكي تكونوا مطمئنين علينا وعلى كافة إخواننا المسلمين عساكر الموحدين ومن كرم الباري تعالى الوقت الطيب إنشاء الله العليم قريبا يصلكم أخبار السرور بإهلاك أعداء الله ودعاء الله جميعهم يبقوا غنيمة للمؤمنين وأسود المجاهدين وغاية المأمول منكم أن تمدوا إخواننا المجاهدين بالدعاء بكافة الأوقات والمحلات المضنون بها إجابة الدعاء السلام ١٠ ذي الحجة /١٢١٣/هـ الحاشية: وردت حاشية في أسفل الصفحة بالطلب

من حماة كعك وبارود ونصها- وبخصوص البكسمات والذخائر حالا تعدوا إرسالها إلى أسكلة طرابلس وإياكم إهمال بذلك والسلام وكذلك تعملوا إلى إرسال البارود ويكون شيء طيب عال وقد نصبنا بدمشق الشام متسلما محمد بك ترجمان زادا بكاف عرضنا لكم ذلك التوقيع الحاج أحمد الجزار والى الشام وصيدا وعكا)".


بشير الشهابي

موقف الأمير بشير أثناء حصار عكا

ــ عندما تساوت قوى الفريقين ووقف كل من بونابرت والجزار يتربص بالأخر التفت كل منهما إلى الأمير بشير فوجدا فيه مرجّحا لكفة من يُساعده فيما يُقدمه الأمير من رجال ومؤن فكتب كل منهما إليه: أما بونابرت فقد طلب إليه المساعدة ووعده بتوسيع حدود إمارته وتخليص بلاد الشام من حكم الجزار المتقلب الذي دائما ما يخلف بوعوده ويغدر بمن حوله وأما الجزار فأصرّ على الأمير أن يمده بجيش ليقاوم الحملة الفرنسية ووعده مقابل ذلك بإعادة مدينة بيروت إلى إمارته وكان موقف الأمير حرجا للغاية فالمعارك لم تكن تنبئ عن نجاح مؤكد لأحد الفريقين والواقع أنه كان من الصعب على أمير لبنان وأي أمير أن يتخلص من التورط السياسي عندما تتدخل قوة أجنبية في المنطقة فالأمير لم يكن ليضمن وفاء الجزار بوعده

فهو قد خلف وعود عديدة من قبل مقابل المال كما أنه كان يريد أن يعين أبناء الأمير يوسف بدلا من بشير وليس هناك ما يمنع أن يعاود الكرّة إن انتصر على الفرنسيين كذلك ليس هناك من ضمانات لنوايا بونابرت تجاه الأمير ولبنان.

ـ سكت الأمير بشير عن الرد على رسالة بونابرت وتجاهل المؤن التي زود بعض الأهالي بها الجيش الفرنسي وردّ على الجزار يعتذر عن تقاعسه في نجدته زاعما أن أهل البلاد امتنعوا عن طاعته بعد أن بلغهم أن الجزار عزله عن الحكم وولّى مكانه أبناء الأمير يوسف فكان هذا الاعتذار أشد وقعا في نفس الجزار من الرفض الصريح ومن حسن حظ الأمير بشير أن رسالة ثانية بعث بها بونابرت إليه وقعت في يد "متسلّم" صيدا فأرسلها إلى رئيسه الجزار وكان فيها عتاب من بونابرت للأمير بشير لعدم رده على رسالته الأولى عندئذ اطمأن والي عكا بعض الاطمئنان إلى سلامة موقف الأمير من الفاتح الفرنسي وكان هذا الموقف المحايد الذي التزمه الأمير بشير موقفا حكيما أنقذ فيه نفسه وبلاده من التورّط بين القوتين المتنازعتين.

۩"(وهكذا وقف الأمير بشير الشهابي موقفا محايدا تجاه رجلين لا عهد لهما ولا أمان ولا عجب في ذلك فالأمير الشهابى لم ينس غدر نابليون بحامية يافا وأهلها بعد أن أمنهم على أرواحهم مما أوجد انطباعا عاما عند الجميع بأن نابليون رجل لا عهد له ولا أمان كذلك لا يختلف الوضع كثيرا مع الجزار الذي اشتهر بالقسوة والغدر وسرعة التقلب وقتل الناس من المسلمين وغير المسلمين وسجل الرجل حافل بذلك ولربما كان تصديه للغزو الفرنسي واستعداده للشهادة من أجل ذلك أفضل عمل قام به في حياته)".

۩"(تعليق المؤلف)"

فشل الحصار

ـ وأخيرا وفى الساعة الثامنة بعد هبوط الظلام من يوم ٢٠ مايو ١٧٩٩م وبعد حصار دام ٦٢ يوما حول عكا من ١٨ مارس وحتى ٢٠ مايو ١٧٩٩م قرر نابليون فك الحصار عن عكا وأمر جنوده برمي ما بقي معهم من قذائف على المدينة وأبنيتها لا سيما قصر الجزار والمنطقة المحيطة به مما ألحق دمارا كبيرا في أبنية المدينة.

ـ وكان قصد نابليون بالإضافة إلى الانتقام من المدينة التي أذلته توفير مظلة لانسحابه من حولها وكذلك لحفظ ماء وجهه أنه استطاع أن يدمر عكا ثم عاد الجنود الفرنسيون أدراجهم إلى مصر بعد أن فكوا مقر قيادتهم ومعسكرهم من تل الفخار حتى دون أن يشعر بذلك المدافعون عن عكا وبعدما ألقوا بمدافعهم الثقيلة وعتادهم وأسلحتهم للبحر تاركين عكا وعلامات الفشل والإرهاق والخسارة تلاحقهم وصعد الجزار على السور وأمرّ رأسه فرأى أن معسكر الفرنسيين خلا ممن فيه وأن عكا محاطة بنطاق من الجثث البشرية.

ـ وقد ذكر الأمير أحمد حيدر الشهابي "(أن حصار عكا على يد سر عسكر الفرنساوية المسمى بونابرته استمر ٧٠ يوما إلى أن وقع الطاعون وجاءتهم أخبار عن إمدادات إنجليزية بحرية وبرية لجيش الجزار ففكوا الحصار عائدين إلى مصر)".

ـ هذا وقد تحدث "جوزيف مارى مواريه" في مذكراته(مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر) عن الفشل الفرنسي في غزو عكا وفداحة الخسائر الفرنسية قائلا:"(..فقد كان أول ما وقعت عليه عيناى عند عودتنا إلى غزة هو منظر جندي جريح اعتقدت أنه قدم إلينا من الجيش فصحت عند رؤيته:إيه استوليتم على عكا؟ فأجاب كلا بل نحن ننسحب من سوريا فوقع علىّ

الأمر كالصاعقة ولم أقو على معرفة المزيد وبعد ساعات قليلة أدركت فداحة مصيبتنا إذ توافدت علينا قوافل المصابين)".

من واقع سجلات المحكمة الشرعية في حماة

احتفال حماة بانتصار الجزار

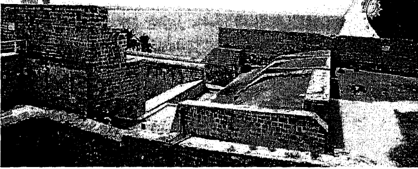
ـ لقد حفظت لنا سجلات المحاكم الشرعية في حماة بعض الوثائق المعبرة عن فرحة واحتفال أهل حماة بانتصار أحمد باشا الجزار على نابليون وفشل حصاره لعكا الصامدة والذي جاء فيه"(لما كان يوم تاريخه قد أتانا النصر من الله تعالى لحضرة سعادة الدستور الوقور أفندينا الحاج أحمد باشا الجزار من شهر ذي الحجة نهار العيد الكبير ونصرهم الله تعالى عليهم قتلوا منهم مقتلة عظيمة فوقع الحرب بينهما أربعة أيام متواليات وكسروهم الإسلام كسرة عظيمة فجانا البشاير لمدينة حماة فجاء الثلاثاء سبعة أحمال روس الفرنسيين متوجهة لطرف الدولة العلية وأمر جناب الأماجد والأعيان جناب عبد الله آغا المحمود حفظه الملك الودود أن تزين البلدة سبعة أيام بنحو جيد نصرة للإسلام والدين قد زينت البلدة بالهناء والسرور وأنه فرح تبن السبعة أيام وقد وجه بإشرافي تزيين عراضة عظيمة في نهار السبت في الثامن والعشرين خلت من شهر ذي الحجة افتتاح سنة أربعة عشر ووجه من جميع الأصناف والطوايف حركات وكارات وفرج ففعلوه ذلك ومن جملتهم طائفة الدباغين والبوابيجي فعلموا محمل شريف والحريراتي والعبجي والخوامة والحلاقين والمبيضين والبيطار والسراجين والطاحون والفرن والبازركان والأرناؤوط والهوارة وعرب عنزة وحبالين والنجارين وقرباط وصقل أغاسي وعدة سلاح ودروعه ومأشبه ذلك،ومن أول العراضة إلى آخرها مقدار ثلاث ساعات أو أكثر وكان يوم مشهود فلزم أننا قيدناه في السجل تعظيما ولله الحمد والمنة قد كملت العراضة ولم يصير تعدية ولااقتتال ولاسفه

ولاجدال وما صار كغابر ولاغرر ولاتليجية ولإفساد وضرر في وجود جناب عبدالله آغا المحمود وصار يوما يعد من الأعمار سنة ١٢١٣هـ المحكمة الشرعية في حماة)".

ـ هذا وقد أشار عبد العزيز جمال الدين في كتاب من إعداده وتحقيقه(قصة أحمد باشا الجزار بين مصر والشام وحوادثه مع نابليون بونابرت)قائلا:(إنه منذ هزيمة نابليون وعودته من الشام عام ١٧٩٩ كانت الشام ولبنان وفلسطين تحت سيطرة الجزار بلا منازع أو منافس حيث حكم العصبيات المحلية وحول أمراء الدروز إلى أدوات للظلم الاقتصادي لحسابه)".

أسباب فشل نابليون في الاستيلاء على عكا

ـ ومهما يكن من أمر فيمكننا استنتاج عجز وفشل نابليون بونابرت باحتلال عكا لأسباب عديدة تكمن في الآتي أسوار المدينة المنيعة وتحصيناتها واستبسال المدافعين عنها بقيادة أحمد باشا الجزار ومساعدة الأسطول الإنجليزي بالعتاد والأسلحة للجزار والذي كان له أكبر الأثر في دعم ورفع معنوياته وتصديه للقوات الغازية وكذلك بسبب رفض الأمير بشير الشهابي الثاني (لبنان) في الانضمام لنابليون والتحالف مع الفرنسيين ضد الجزار والعثمانيين وأيضا بسبب فشل محاولات وخطط الجنرال لويس كافرلى المهندس الرئيسي لجيش نابليون باختراق أسوار المدينة ولقلة العتاد والمؤن ولتفشي الأمراض خاصة الطاعون الذي فتك بجيش نابليون بعد أن تفسخت آلاف الجثث التي أزهقت في يافا على يد الفرنسيين.



۩"(وهكذا ذبح الجزار أحلام نابليون الشخصية عند أسوار عكا الصامدة والتي جعلته يتجرع مرارة الفشل والهزيمة الأولى عند حصونها المنيعة تلك الحصون التي وقفت له بالمرصاد يرافقها بطولات المدافعين الأسطورية ولعنات الآلاف من أرواح ضحايا يافا الأبرياء ليجد نابليون نفسه في نهاية المطاف لا يملك إلا الرحيل ولكنه يأبى الرحيل قبل أن يخترقها تذكارا فرنسيا شخصيا له حيث رمى بقبعته فوق أسوارها من شدة غيظه قائلا: (على الأقل مرت قبعتي من فوق أسوارك يا عكا لقد تحطمت أحلامي على أسوارك يا عكا سلامٌ عليكِ سلاما لا لقاء بعده) وبهذا التوديع الحار لبونابرت لأسوار عكا بعد فشله الذريع في اختراقها تكون أحلامه في تكوين إمبراطورية فرنسية في الشرق والانطلاق منها لاحتلال اسطنبول والقضاء على الدولة العثمانية قد تلاشت تماما ولتبقى مقولته المشهورة مدوّنة على صفحات التاريخ:(لقد أنستني عكا عظمتي لو سقطت عكا لغيرت وجه العالم فقد كان حظ الشرق محصورًا في هذه المدينة الصغيرة)".

۩"(تعليق المؤلف)"

عكــا فـــي الأدب العــربي

ـ لقد فرضت عكا الصامدة نفسها فرضا علـى صـفحات الأدب العربي ولا عجب في ذلك فهي المدينة العربية الصغيرة الوحيدة التي قهرت نابليون وجيشه الذي كان أقوى جيش في العالم فـي ذلك الوقت ومن الأبيات الرائعة التـي تغنـت بعكـا وبسـالتها وصمودها في وجه الحصار النابليوني أبيات عبد الهادي حمـاد في كتابه(قالت الصورة)والتي يقول فيها:ـ

عكــــا العظيمـــة

(قاهــرة نابليــون)

هاتــي لنــا مــا شئـت مــن أخبــار
يــا رمــز كــل بطــولة و فخــار

قــد سجــل التاريــخ قبعــة الــذي
للشــر جاءك مــن وراء بحــار

فرددتـــه و هــو العزيــز بجيشـــه
بعــد الحصــار بذلـــة وخسار

عكــا العظيمــة قــد شهــدت ثلاثــة
سفكــت دمائــهم يــد الغــدار

وأقمـــت عرســـا للشهـــادة زغـــردت
فيـــه النســـاء لفتيـــة أبـــرار

عكـــا و أنـــت المجـــد شُـــدْتِ بنـــاءَهُ
للعـــز و الإيمـــان خيـــر منـــار

الســـورُ يبـــقى للسيـــوف ملاعبـــا
أمـــا التقـــى فلجامع الجـــزّار

مـــا أنـــت إلا فـــي الوجـــود قصيـــدة
تشـــدو بهـــا الأيـــام للأقـــدار

للتوضيح :

يقصد في الشطر قد سجل التاريخ قبعة الذي......
نابليون بونابرت الذي حاصر عكا بغية احتلالها
فصمدت ولما فشل خلع قبعته وأطارها في الهواء صوب السور
وقال: إن لم أستطع دخولك فلتدخلك قبعتي

أما في شطر عكا العظيمة شهدت ثلاثة
هم الشهداء : عطا الزبير ومحمد جمجوم وفؤاد الحجازي
الذين أعدمهم الاستعمار البريطاني شنقا لجهادهم ونضالهم
ثم تحولت جنازتهم بالفعل إلى عرس الشهداء

من كتاب (قالت الصورة) لعبد الهادي حماد

عودة الحملة إلى مصر

ـ هذا وفي طريق عودتهم نحو مصر دمر الجنود الفرنسيون تحصينات الساحل وأبادوا الحقول المزروعة وتكبدوا الكثير من الخسائر في الأرواح خلال اشتباكهم مع أبناء العشائر والقبائل البدوية وسكان نابلس الذين تعرضوا لهم بطريق عودتهم هذا فضلا عن موت ومقتل أكثر من ثلث أفراد الجيش الفرنسي خلال الحصار حول عكا ولا تزال حتى يومنا هذا لوحات القبور والمدافن على جبل الكرمل تحمل أسماء الضحايا الفرنسيين الذين لاقوا حتفهم بفترة الغزو الفرنسي على فلسطين.

ـ وفي ١٤ يونيو ١٧٩٩م دخل نابليون القاهرة بعد أن نبذ فكرة غزو سوريا وطرح كل أطماعه وأحلامه فيما يتعلق بالشرق قائلا:"(لقد لازمني سوء الطالع فلولا الجزار لصرت إمبراطورا على الشرق)".

الثورات المصرية أثناء الحملة على سوريا(الشام)

ـ لقد أوضح د/عصام محمد شبارو في كتابه(المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني) مقاومة الأهالي في الوجهين البحري والقبلي وثوراتهم ضد المحتل الفرنسي.

في قنا(٣ مارس ١٧٩٩م)

ـ عندما كان نابليون منهمكا في الحملة على سوريا وكان الجنرال ديزيه مقتفيا أثر المماليك في الصعيد عاكست الرياح الأسطول الفرنسي قرب بلدة البارود وكانت مؤلفة من اثني عشر سفينة مسبحة بالمدافع الضخمة ومحملة بالمؤن والذخائر والأمتعة وخزينة الحرب وآلات الموسيقى و تقل حوالي ثلثمائة جندي ومائتي ملاح فهاجم أهالي قنا الأسطول الفرنسي في ٣

مارس ١٧٩٩م ونزل عدد كبير منهم إلى المياه سـابحين نحـو السفن .

ـ هذا وقد أطلقت السفن مدافعها على المهاجمين ومات كثيرون دون أن يوقف ذلك محاولة الوصول إلى السفينة "إيطاليا "ووجد قائدها "سوراندى" أنه مغلوب على أمره فأمر بحارتـه وجنـوده القفز في الماء وأشعل النار في مخزن البـارود فـي السـفينة فنسفت إلى شظايا أصابت الكثيرين ودارت معركة مائية بالأيدي والخناجر وكذلك صنع بقية رجال السفن الفرنسية المرافقة بعـد أن رأوا عنف الهجوم.

ـ هذا وقد هلك قائد الفرنسيين في هذه المعركة و جميع جنوده وعددهم ٥٠٠ وكانت هذه أكبر خسـارة منيـت بهـا القـوات الفرنسية في معركة واحدة ويرجع ذلك إلى روعة التصميم الذي أبداه أبناء قنا في الهجوم الجريء الذي لا مثيل له فـي تـاريخ الفدائية وقد غنم الأهالي كثيرا من الذخائر وبعض المدافع التـي كانت تحملها السفن المتطورة والخزينة وما فيها من مال .

ـ وفى أبنود ظهرت هذه الغنائم التي شدت من عزم الشعب على المقاومة حيث دارت مع الفرنسيين معركة رهيبة استمرت ثلاثة أيام لم تنته إلا بإحراق البلدة إحراقا تاما حتى تحولت إلى تـراب وعلى الرغم من المئات العديدة التي خسرها الأهالي فقد أثخنـوا الجيش الفرنسي بجراح مؤلمة إذ قدرت خسـائره ١٦٩ قتيـل وجريح وهكذا ظل الجيش الفرنسي يطارد قوات شتى لا عداد لها ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال في ميـدان واسع يمتد من الجيزة شمالا إلى أسوان جنوبا ومـن القصـير شرقا إلى واحات الصحراء غربا دون إقرار السـلطة الفرنسـية لها .

ثورة أمير الحج (مارس ١٧٩٩م)

ـ أما في مارس ١٧٩٩ وأثناء حملة بونابرت على الشام قامت ثورة أخرى بالشرقية وهى ثورة أمير الحج وكانت وظيفة إمارة الحج من الوظائف الكبرى في القطر المصري وكان لا يتقلـدها سوى كبار الأمراء والمماليك وعندما جاءت الحملة أسند نابليون هذه الوظيفة لمصطفى بك بدلا من صالح بك الذي كان من أتباع مراد بك وعندما بدأ نابليون حملته على سوريا خيل لمصـطفى بك أنه يستطيع بما له من مركز إمارة الحج أن يثير حربا علـى الفرنسيين فنادى بالجهاد وامتد لهيـب الثـورة إلـى مـديريتي الشرقية و المنصورة و كانت مظالم الفرنسيين من دوافع الثورة و كادت الثورة أن تتحول لحركة عامة تهدد الجـيش الفرنسـي أثناء انشغال نابليون بسوريا فذهب الجنرال لانوس علـى رأس قوة من ٦٠٠ جندي إلى الشرقية منبع الثورة ففر أميـر الحـج لدمياط وبحث لانوس عن القرى التي شاركت بالثورة وأحرقهـا لتكون عبرة٠

ثورة المهدى فى البحيرة
(٢٤ أبريل ـ ١٠مايو١٧٩٩) م

ـ وبينما كان بونابرت في حملته على سوريا اندلعت فـي ٢٤ إبريل ثورة عظيمة في البحيرة حيث ظهر فيها رجل من طرابلس ادعى المهدية ودعا الناس لقتال الفرنسيين وليلـة ٢٤ وصـل دمنهور فأمر رجاله بالهجوم على الحاميـة الفرنسـية فقتلـوا رجالها جميعا واستولوا على السـلاح والمـدافع وكـان لهـذا الانتصار أثر كبير في نفوس أهالي مديرية البحيرة فـزاد عـدد أتباعه٠

ـ وكان في الرحمانية فرقة من الجيش الفرنسي فلما وصل أخبار استيلاء المهدي على دمنهور سار قائد الفرنسيين هناك للقضاء عليه في ٥٠٠ جندي فوقعت معركة كبيرة بين الرحمانية ودمنهور اضطر بها القائد الفرنسي للانسحاب و لكن الجنرال لانوس عاد وهزم رجال المهدي ودخل دمنهور في ١٠ مايو وفتك بالأهالي انتقاما وفر أتباع المهدي ولم يعرف إن كان قتل أو فر .

موقعة أبى قير البرية

٢٥ تموز(يوليو) ١٧٩٩م

ـ بلغ نابليون نبأ نزول قوات الأتراك(الجيش العثماني الثاني الذي جاء عن طريق البحر) عند أبى قير في ٢٥ يوليو ١٧٩٩م فتقدم نابليون بقواته وتمكن من القضاء على الجيش العثماني المؤلف من خيرة الجنود الانكشارية بسالة وإقداما واختل نظام الجيش العثماني فأركن جنوده للفرار طالبين النجاة بالالتجاء إلى القوارب في مياه أبى قير فغرق معظمهم أو رموا بالرصاص على الشاطىء .

ـ هذا وكان من بين القلائل الذين أفلحوا في الوصول إلى سفنهم ضابط شاب لعب دورا مهما في تاريخ مصر الحديث وهو محمد على وكانت هزيمة العثمانيين كارثة عظمى فقدوا فيها ثمانية آلاف بين قتيل وجريح وغريق ووقع ثلاثة آلاف في الأسر بينما لم يفقد الفرنسيون سوى ٢٥٠ قتيلا و ٧٥٠ جريحا .

ـ هذا وقد وقع قائد الجيش التركي مصطفى باشا أسيرا فاستقدمه نابليون إلى مقر قيادته وأكرمه وتحدث إليه حديث الجندي للجندي فأطلعه مصطفى باشا على سوء الحالة في أوروبا وتألب الدول الثلاث انجلترا وروسيا والنمسا على فرنسا

عودة نابليون إلى فرنسا

٢٢ آب(أغسطس)١٧٩٩م

ــ لقد قرر نابليون العودة إلى فرنسا بعد تلك الأخبار التي عرفها عن الحالة السيئة في فرنسا نتيجة تعرضها لأخطار خارجية لتحالف أوروبا ضدها لذا فقد قرر نابليون العودة سرا إلى فرنسا وفى ٢٢ أغسطس عام ١٧٩٩م غادر نابليون ميناء الإسكندرية سرا إلى فرنسا بعد أن ترك قيادة "جيش الشرق" وإدارة الأمور في مصر بأيدي الجنرال كليبر وبقية الجيش الفرنسي المنهار والضعيف والفاقد الأمل بالعودة حتى إلى فرنسا ٠

ــ هذا وقد أورد "جوزيف مارى مواريه" في مذكراته(مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر) تمنيات الجنود وداع قائدهم قبل رحيله ورسالة بونابرت التي تركها فأعادت إليهم الهدوء والاطمئنان قائلا:ــ"(كم كنا نتوق لوداع قائدنا ولم نشعر بالرضا إلا إثر سماعنا البيان التالي: القائد العام ــ من بونابرت إلى الجيش "أيها الجنود:لقد جعلتني الأنباء الواردة من أوروبا أقرر الرحيل إلى فرنسا وأترك قيادة الجيش للجنرال كليبر وسوف تتلقون قريبا أنباء منى ولست في حل أن أزيد عن هذا يعز عليّ ترك الجنود مع ارتباطي بهم كل الارتباط ولكنه أمر مؤقت واعلموا أن الجنرال الذي خلفته يحظى بثقة الحكومة وثقتي)" ٠

(بونابرت)

ــ كما ترك نابليون وصيته لكليبر التي يقول فيها:"(إذا أردت أن تحكم مصر طويلا فعليك باحترام مشاعر الناس الدينية واحترام حرمات منازلهم)"!!



ــ ومن أقوال نابليون حول مصر:ــ"(في مصر لو حكمت لن أضيع قطرة واحدة من النيل في البحر وسأقيم أكبر مزارع ومصانع أطلق بها إمبراطورية هائلة ولقمت بتوحيد الإسلام والمسلمين تحت راية الإمبراطورية ويسود العالم السلام الفرنسي)".

ــ "(في مصر قضيت أجمل السنوات ففي أوروبا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغير التاريخ أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغير التاريخ)".

ــ"(لو لم أكن حاكما علي مصر لما أصبحت إمبراطورا علي فرنسا)".

ــ"(كانت أيامي في مصر هي أجمل أيام في حياتي وأعظمها مجدا وعنفوانا وتظل مصر في رأيي أهم وأجمل بلد في العالم)"

ــ"(حلمي تجسد في الشرق بينما كاد يتحول إلي كابوس في الغرب)".



كليبــر وقيــادة الحملــة

اتفاقية العريش ـ موقعة عين شمس

ـ لم يكن كليبر من أنصار البقاء في مصر بل كان يرى استحالة بقاء الحملة في مصر وذلك بسبب الحالة السيئة التـي وصـلت إليها فقد كان الجيش الفرنسي مهـددا بـالخطر مـن الـداخل والخارج لذا فقد أسرع كليبر بالتفاوض مـع الأتـراك وانتهـت المفاوضات بعقد اتفاقية العريش في٢٤ كانون الثـانى(ينـاير) ١٨٠٠م وفيها تم الاتفاق على جلاء الفرنسـيين عـن مصـر بأسلحتهم ومعداتهم٠

ـ رفضت انجلترا خروج فرنسا من مصر إلا بعد تسليم معداتهم وأسلحتهم فرفض كليبر طلب انجلترا واستعد للمقاومـة وكـان الجـيش التركـي قـد وصـل إلـى عـين شـمس فتقابل كليبر مع جيش العثمانيين وهزمهم فـي موقعـة عـين شمس في ٢٠ آزار(مارس) ١٨٠٠م وتقهقر الأتراك إلى الشام٠

ـ هذا وقد أورد الجبرتى هذه الأحداث قائلا:"(وقع صـلح بـين العثمانيين والفرنسيين(بقيادة كليبر) يغادر هؤلاء بمقتضاه أرض مصر لكن العثمانيين تواطأوا مـع الإنجليـز علـى محاصـرة

الفرنسيين في البحر الأبيض المتوسط وضربهم وهو ما اعترف به الوزير العثماني على تقدير منه بأن ذلك يحدث في غفلة من الفرنسيين غير أن هؤلاء علموا بذلك فامتنعوا عن الخروج من مصر وهيأوا أنفسهم ومعداتهم للقتال)".

ثورة القاهرة الثانية

٢٠ آزار(مارس) ١٨٠٠م

ظروف قيام الثورة ونتائجها

ـ لقد أدى صوت مدافع معركة عين شمس القريب إلى هياج أهل القاهرة والذي وصفه الجبرتي بقوله"(وأما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال فهاجموا ورمحوا إلى أطارف البلد وقتلوا أشخاصا من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا إلى أصحابهم)".

ـ وهكذا اندلعت ثورة القاهرة الثانية ومعركة عين شمس قائمة وكان من زعمائها السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى كبير التجار والشيخ الجوهري.

ـ هذا وقد بدأت الثورة من حي بولاق حيث يقول الجبرتي "(وأما بولاق فإنها قامت على ساق واحد وتحزم الحاج مصطفى البشتيلى وأمثاله هيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا.. وعملوا كرانك حوالي البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد)".

ـ هذا وقد حاصر كليبر القاهرة ثم تمكن من إخماد الثورة بعد أن دمر حي بولاق وفرض الغرامات على جميع المصريين واشتد في مصادرة أموال الناس.



مقتـــل كليبـــر

١٤ حزيران(يونيو) ١٨٠٠م

ـ لقد قتل كليبر في ١٤ يونيو ١٨٠٠م بسبب جرائمه الكثيـرة التي اقترفها بحق الشعب المصري وذلـك علـى يـد المجاهـد السوري سليمان الحلبي الذي كان يدرس في الأزهر الشريف٠

ـ هذا وقد تحدث الجبرتي في يومياته عن سبب إقدام سـليمان الحلبي على قتل كليبر قائلا:"(سليمان الحلبـي أرسـله الـوزير العثماني بعد هزيمة العثمانيين من الجيش الفرنسي ليقتل كليبر)" كما أورد الجبرتي أيضا مـا قالـه سـليمان الحلبـي لـبعض المجاورين معه من بلده حلب أنه حضر مـن غـزة"(لأجـل أن يغازى في سبيل الله بقتل الكفرة الفرنساوية)"٠

ـ هذا وقد تحدث نابليون عن حادثة مقتل كليبر فـي مذكراتـه قائلا"(إن الشيخ السادات هذا هو الذي أمر الجنرال كليبر بتعذيبه وضربه وكان هذا من أهم الأسباب التي أدت إلى مقتل كليبر)"٠

مينو وجلاء الحملة الفرنسية

ـ لقد تولى الجنرال مينو قيادة الحملة بعد مقتل كليبر وقد صمم مينو على البقاء في مصر وفى عهده قــررت انجلتــرا إرســال حملات عسكرية لطرد الفرنسيين.

ـ هذا وقد تمكنت الحملة الإنجليزية من النزول في أبى قيــر ٨ مارس ١٨٠١م وفى يوم ١٣ مارس دارت معركة سيدي جــابر والتي انتهت بهزيمة الفرنسيين وتراجعهم إلى أسوار الإسكندرية وفى ٢١ مارس ١٨٠١م نشبت معركة كانوب والتي انهزم فيها الجيش الفرنسي وبذلك انفتح الطريق أمام الجــيش الانجليــزى للتوغل في البلاد حيث زحف الإنجليز نحــو القــاهرة واضــطر الفرنسيون إلى التسليم والجلاء عن مصــر فــي ١٨ ســبتمبر ١٨٠١م لتعود بذلك مصر لنفوذ السلطان العثماني وفقا لصــلح أميان المبرم بين بريطانيا وفرنسا ولتنتهي فتــرة تاريخيــة ذات تأثير بعيد الأمد على العلاقات بين الشرق والغرب عُرفت بفتــرة الحملة الفرنسية على مصر.

۩"(وهكذا رحلت الحملة الفرنسية عن مصر درة الشرق وقلبــه النابض بالعروبة والإسلام وبهذا الرحيل يكون قد قضى نهائيــا على أحلام نابليون بونابرت الشخصية بالسيطرة علــى الشــرق والطرق التجارية للهند ثم الانقضاض والقضــاء علــى الدولــة العثمانية في اسطنبول واحتلال أوروبا الشرقية وتحقيق حلمــه وطموحه بإقامة إمبراطوريته العظمى في أوروبا والشرق علــى غرار الإسكندر المقدوني العظيم والحقيقة التي يجب أن تذكر هنا هو أن فشل نابليون في تحقيق حلمه في السيطرة على الشــرق

۩"(تعليق المؤلف)"

يرجع إلى عدة أمور تأتى أسوار عكا في مقدمتهم جميعا بلا منازع ويلي أسوار عكا الهزيمة القاسية للأسطول الفرنسي في موقعة أبى قير البحرية ١٧٩٨م حيث انقطعت بعدها صلة الحملة البحرية بفرنسا مما ألجأ الفرنسيون إلى المبالغة في جمع الأموال والضرائب من الأهالي لتعويض نفقات الحملة مما أدى إلى انتهاز المماليك تلك الفرصة حيث حرضوا الأهالي على الثورة هذا بالطبع إلى جانب غارات المماليك المتواصلة على القوات الفرنسية وخاصة في الصعيد مما أحدث الفوضى وعدم الاستقرار في مصر نواة الإمبراطورية الفرنسية والتي يرغب نابليون بونابرت إقامتها في الشرق ثم الانطلاق منها لتحقيق أهدافه التوسعية فإذا أضفنا إلى ذلك تصميم القوى المعادية للحملة على ضرورة إخراجها من مصر بشتى السبل والوسائل الممكنة كالتحالف الإنجليزي التركي لأدركنا أن تحقيق حلم نابليون في تكوين إمبراطورية فرنسية في الشرق كان أمرا بعيد المنال)" ٠

نتائج حملة بونابرت على مصر والشام

ــ لقد كان لحملة نابليون على مصر وفلسطين أو الحملة الفرنسية على الشرق كما تعرف ببعض المراجع التاريخية والتي استغرقت ما يزيد عن الثلاث سنوات بالغ الأثر التاريخي والحضاري والعسكري والاقتصادي حيث غيرت تاريخ المنطقة برمتها فمع نزول قوات نابليون بونابرت إلى الإسكندرية عام ١٧٩٨م كانت بداية النهاية لنفوذ المماليك في مصر ونشوء ما عُرف لاحقا بالمسألة المصرية وبداية التدخل الأوروبي في شؤون الإمبراطورية العثمانية والولايات العربية التابعة لها وهذا ما تذكره كتب التاريخ وتعرفه بالمسألة الشرقية ٠

ــ كما أوضحت الحملة أن احتلال جيش فرنسي أجنبي لمصر وفرض سيادته وسلطانه على أبناء البلاد ليس بالشيء المألوف

والمقبول على أبناء الشعب المصري كما أن نــابليون بونــابرت وبالرغم من تــأثره بأفكــار الثــورة الفرنســية مــن الحريــة والديمقراطية وسيادة الشعب وســعيه لتطبيقهــا علــى الحكــم والإدارة بمصر إلا أنه لم يلق آذانا صــاغية ورغــم محاولاتــه المتكررة لإظهار نفسه أمام الشعب بأنه صديق للمسلمين ولأبناء الشعب المصري وأنه في الواقــع يناصــر ويســاند الســلطان العثماني في اسطنبول من ظلم وتمرد المماليك وسعيه للتقــرب من العلماء ورجال الدين ونشر المطبوعات والمراســيم باللغــة العربية وبأنه يعترف بسيادة السلطان العثماني على مصر وأنــه لا ينبغي سوى تنظيم شؤون البلاد الداخلية وتحرير شعبها مــن المماليك إلا أنه كان لإعلان السلطان العثماني في سبتمبر عــام ١٧٩٨م الحرب على فرنسا وعقده اتفاقيات تعاون ودفــاع مــع روسيا وبريطانيا قد خيّب آمال نــابليون وأشــعل نــار العــداء لنابليون والجيش الفرنسي من قِبَل الشعب المصري.

ـ وبالرغم من التغييرات السابقة التي أدخلها نابليون في الإدارة والحكم لكن ذلك نُفذ بما يتلاءم والمصالح الفرنسية وبما يتماشى مع أهداف ومصالح نابليون نفسه حيث ألزم السكان المصــريين برفع العلم الفرنسي في كل مكان وتعامل الفرنسيون مع السكان المحليين كأســيادهم الجــدد والصــلاحيات التنفيذيــة المهمــة والواسعة بقيت من ضمن صلاحية القائد الأعلى وممثليه وحينما أثقل نابليون أبناء الشعب المصري بالضرائب وانتشــار أعمــال القتل والنهب وأساليب المعاقبة الجماعية التي نفــذها نــابليون وجنوده بحق كل من يخالف أوامره أثار هذا التصــرف وهــذه السياسة نقمة واستياء جماهير المصريين فثار ســكان القــاهرة ضد الفرنسيين فــي أكتــوبر ١٧٩٨م وقامــت جماعــات مــن المصريين بمهاجمة دوريات الفرنسيين وتعطيل طرق مواصلاتهم وأتباع القوات الفرنسية سياسة اليد الحديدية وأســاليب القمــع وإحراق القرى وما شابه لكل من خالفهم وقاومهم كل ذلــك لــم

يزد إلا من نقمة أبناء الشعب المصري ضد جيش الغزاة الفرنسي.

ـ وقد وجهت الحملة أنظار الدول الأوربية إلى أهمية موقع مصر الجغرافي وكانت انجلترا من أكثر الدول اهتماما لأن مصر مفتاح السيطرة على مستعمراتها في الهند لذا فقد عملت انجلترا على عدم وقوع مصر في يد أحد الدول الأوربية القوية.

ـ كما ساعدت الحملة على إيقاظ الروح القومية في مصر حيث قاوم المصريين الحملة وأخذوا يدافعون عن مصر بالسلاح والنفس أما بعد جلاء الحملة فقد تمسكوا بحقهم في الحرية.

ـ كما أن حملة نابليون على مصر كانت أول حملة أوروبية مسلحة على الشرق الأوسط منذ الحروب الصليبية وبداية التدخل الأجنبي المباشر في الشؤون الداخلية لولايات وشعوب المنطقة وانكسار الجيش الفرنسي في مصر برهن على أن اقتسام إرث الإمبراطورية العثمانية لن يتم لدولة أوروبية واحدة ولا تستطيع فرنسا بمفردها أو بريطانيا وحدها من تحقيق ذلك دون التحالف مع بقية الدول الأوروبية.

ـ عندما غزا نابليون مصر (١٧٩٨) واستقر الفرنسيون في القاهرة والإسكندرية أصبح تهديد نابليون للهند أعظم شغل شاغل للسياسة البريطانية وبمغادرة نابليون لمصر سرا في أغسطس ١٧٩٩م وحتى مغادرة آخر جندي فرنسي مصر ١٨٠١م زال عمليا تهديد نابليون للقضاء على الحكم البريطاني في الهند وانتهى أمره بعدما أضعفت الحملة الفرنسية من قوة ونفوذ المماليك في مصر.

ـ من أهم نتائج الحملة الفرنسية بعد جلاء الفرنسيين بزوغ نجم محمد علي باشا وإقامته لولاية ودولة مستقلة في مصر (دولة

محمد على باشا) الحاكم والوالي العثماني الطموح والذي يعتبر وبحق مؤسس مصر الحديثة(١٨٠٥ــ ١٨٤٩)م٠

ــ خلال فترة مكوث الفرنسيين في مصر وبعدها تعتبر هذه الفترة نقطة تحول وملتقى حضاري ما بين الغرب والشرق (خاصة بمصر) وقد أدت إلى زيادة اهتمام الأوروبيين بمصر خاصة والشرق عامة فنابليون يعتبر أول من أحضر أول مطبعة عربية إلى مصر (في بولاق) وقد جلبها من الفاتيكان واهتم العلماء والخبراء الفرنسيون الذين رافقوا الحملة بدراسة وفحص وتحليل مختلف وجوه الحضارة المصرية خاصة أعضاء "معهد مصر" الذي أقيم وتأسس في القاهرة بعد الاحتلال مباشرة وضمّ نخبة العلماء والخبراء الفرنسيين فقاموا بإجراء مسح جغرافي وميداني لمصر وراقبوا نهر النيل ورسموا خارطة جغرافية لمصر وقاموا بدراسة آثار مصر وفي عام ١٧٩٩ عثر العلماء الفرنسيون على حجر رشيد الشهير وتمكن العالم الفرنسي شامبليون من فك وشرح الكلمات والرموز المكتوبة باللغة الهيروغليفية القديمة وقد جمع العلماء الفرنسيون نتائج أبحاثهم ودراساتهم في مؤلف ضخم وقيم سُمي(وصف مصر) الذي صدر في باريس عام ١٨٠٩م كما قام علماء الحملة بدراسة مشروع توصيل البحرين الأحمر بالمتوسط ولكن هذا المشروع فشل بسبب خطأ حسابي حيث قدروا أن منسوب مياه البحر الأحمر أعلى من مياه البحر المتوسط هذا فضلا عن نشوء وتطور مجال جديد في علم الآثار يهتم بالتجديد بالآثار المصرية كذلك هزت الحملة الأفكار القديمة في المجتمع المصري وبدأ المصريون يشعرون بأهمية المدنية الحديثة فأخذوا بأساليبها في جميع النواحي٠

ــ كما أن فشل نابليون والجيش الفرنسي أمام أسوار عكا أمام الانتصار البطولي وصمود أحمد باشا الجزار بمساعدة ومؤازرة الأسطول الإنجليزي بقيادة سيدنى سميث قد رفع من منزلة

الجزار عند السلطان العثماني وفي أعين السكان المحليين وبعد الحملة الفرنسية أصبح الجزار الحاكم المطلق والأقوى ليس في عكا فقط وإنما في الجليل وجزء كبير من بلاد الشام لذا تراهُ يُرقى تقديرا لانتصاراته ومساعدته للسلطنة العثمانية من قبل الباب العالي العثماني لباشا على دمشق بالإضافة لحكمه على صيدا وطرابلس والجليل وأصبحت عاصمته الرسمية مدينة عكا ولعلها الفترة الذهبية لهذه المدينة في تاريخها فبعد الحملة الفرنسية لم تعد فلسطين وعكا مجرد ولاية عثمانية نائية بل أصبحت محطا للأنظار ومركزا للصراعات الدولية في أوروبا ومن بؤر سباق التنافس والصراع الاستعماري بين الدول الأوروبية الكبرى (بريطانيا وفرنسا) للسيطرة والتأثير في الشرق الأوسط.

ـ كذلك فإنه على الرغم من السهولة النسبية التي استولى بها الفرنسيون على مصر في ذلك الوقت فإن الحملة على الشام قد اصطدمت بالعديد من الصعوبات في مقدمتها المقاومة من جانب بعض المدن وتباعد المسافة بين القوات المتجهة إلى الشام وقواعدها في مصر حيث أصبحت هذه القوات وطرق إمدادها فريسة سهلة لهجمات مسلحي قبائل البدو في سيناء بمصر وفي فلسطين.

ـ كذلك نتيجة لاعتداء نابليون على أملاك الإمبراطورية العثمانية في مصر والشام لذا فقد انضمت تركيا إلى تحالف "الحلف الثاني" سنة ١٧٩٨ مع بريطانيا وروسيا والنمسا ضد فرنسا بعد أن كانت تركيا من أقوى أصدقاء فرنسا قبل الحملة والأعمال البربرية والقتل والإعدام الجماعي للأسرى والجنود والمدنيين التي قام بها نابليون وجنوده في مصر وفلسطين فضحت نوايا فرنسا الاستعمارية التي كانت تتستر عليها بستار مساعدة الأقليات والشعوب المضطهدة حسبما وردت في نتائج

الثورة الفرنسية والتغييرات الاجتماعية والدستورية والسياسية التي حققتها حين اندلاعها.

ـ نتائج أخرى للحملة لا تقل أهمية عما ذكر آنفا وهى القضاء على الأسطول الفرنسي وخفض مكانة فرنسا كدولة بحرية في أعين الدول الأوروبية وبالمقابل ارتفاع مكانة بريطانيا كدولة بحرية عظمى لنجاح أسطولها في القضاء على الأسطول الفرنسي وبما يتعلق بالسلطان العثماني والجيش العثماني فإذا دلت نتائج الحملة على شيء فإنها تشير إلى مدى الضعف والتفكك الإداري والعسكري للسلطنة العثمانية في اسطنبول حيث لم تستطع الدفاع عن أراضيها وممتلكاتها بقواها الذاتية إلا بمساعدة دول أجنبية وإلى قيام وُلاة وحكام أقوياء فيما بعد فاقت سلطتهم سيادة الدولة والسلطان العثماني كمحمد علي باشا في مصر وأحمد باشا الجزار في فلسطين والشام.

الحروب النابليونية

ـ بعد مغادرة نابليون مصر في أعقاب فشله باحتلال عكا عاد إلى فرنسا ليشارك في انقلاب عسكري مع آخرين ضد حكومة (الديركتوار) عام ١٧٩٩م لسوء الأوضاع التي كانت تعيشها بلاده آنذاك ليؤسس الحكومة القنصلية ويتم تعيينه قنصلا أول مدى الحياة مع حقه في تسمية من سيخلفه ثم قام بعد ذلك بتحويل نظام الحكم من القنصلية إلى الإمبراطورية ليصبح حاكما دكتاتوريا بفرنسا.

ـ أثناء حكمه لفرنسا أدخل إصلاحات جوهرية خاصة في النظام الإداري والتشريعي واهتم كذلك بإصلاح النظام المالي والقضائي وأنشأ بنك فرنسا وجامعة فرنسا ولعل أهم أعماله ما عُرف "بدستور نابليون".

ـ هذا وقد خاضت الإمبراطورية الفرنسية نزاعات عدّة خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر عُرفت باسم"الحروب النابليونية" ودخلت فيها جميع القوى العظمى في أوروبا وقد أحرزت فرنسا انتصارات باهرة في ذلك العهد على جميع الدول التي قاتلتها وجعلت لنفسها مركزا رئيسيًا في أوروبا القارية ومدّت أصابعها في شؤون جميع الدول الأوروبية تقريبًا حيث قام بونابرت بتوسيع نطاق التدخل الفرنسي في المسائل السياسية الأوروبية عن طريق خلق تحالفات مع بعض الدول وتنصيب بعض أقاربه وأصدقائه على عروش الدول الأخرى.

ـ ولكن الغزو الفرنسي لروسيا سنة ١٨١٢م قد شكّل نقطة تحول في حظوظ بونابرت حيث أصيب الجيش الفرنسي خلال الحملة بأضرار وخسائر بشرية ومادية جسيمة حيث وجد نابليون موسكو عندما دخلها خالية من سكانها الذين هجروها وأحرقوا كل ما فيها من مؤن فنزلت بجيشه مصائب الجوع والبرد والمرض وفقد أكثر من مائة ألف جندي ولم يتمكن نابليون من النهوض بجيشه مرة أخرى بعد ذلك وفي سنة ١٨١٣م هزمت قوّات الائتلاف السادس الجيش الفرنسي في"معركة الأمم" وفي سنة ١٨١٤م اجتاحت هذه القوّات فرنسا ودخلت العاصمة باريس وأجبرت نابليون على التنازل عن العرش ونفوه إلى جزيرة ألبا ولكن بونابرت هرب من منفاه بعد أقل من سنة وعاد ليتربع على عرش فرنسا وحاول مقاومة الحلفاء واستعادة مجده السابق لكنهم هزموه شر هزيمة في"معركة واترلو" خلال شهر يونيو من عام ١٨١٥م فاستسلم بونابرت للبريطانيين الذين نفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة المستعمرة البريطانية.



وفـــاة نابليـــون

٥ آيار (مايو) ١٨٢١م

ـ هذا وقد توفي نابليون بونـــابرت بمــرض الســرطان ســـنة ١٨٢١م بمنفاه في جزيرة "سانت هيلانه" في المحيط الأطلســي حيث أمضى السنوات الست الأخيرة من حياته وقد أظهر تشريح جثة نابليون أن وفاته جاءت كنتيجة لإصابته بســرطان المعــدة على الرغم من أن كثيرا من العلماء يقولون بأن الوفاة جــاءت بسبب التسمم بالزرنيخ لعدة دلائل تم اكتشافها فيما بعد ومنها أن جسده ظل سليما إلى درجة كبيرة بعد عشرين عاما من وفاتـــه وهي إحدى خصائص الزرنيخ كما أن وصف لـــويس مارشـــند لبونـابرت في الأشهر الأخيرة من حياته مطابق لأعراض حــالات التسمم بتلك المادة ومع ذلك فقد أثبتت بعض الدراسات الحديثـــة أنه مات بسرطان المعدة تماما كأبيه.

ـ هذا وتُدرّس حملات نابليون العسكرية في العديد من المدارس الحربية حول العالم وعلى الرغم من أن الآراء منقسمة حوله حيث يراه معارضوه طاغية جبار لقمعه لثورة العبيد في هاييتى وقراره في عام ١٨٠١ القاضي بعودة العبودية في فرنسا بعد أن كانت الجمهورية قد ألغتها بالإضافة لتسببه في مقتل مئات الآلاف في أوروبا بسبب الحروب التي خاضها هناك فإن كثيرا من الناس يرونه رجل دولة وراعيًا للحضارة إذ يُنسب إليه القانون المدني الفرنسي المعروف باسم"قانون نابليون" الذي وضع الأسس الإدارية والقضائية لمعظم دول أوروبا الغربية والدول التي خضعت للاستعمار والانتداب الفرنسي في العصور اللاحقة.

۩"(وهكذا رحل بونابرت عن الدنيا بأسرها بعدما أذاق الشرق والغرب ويلات ومآسي حروبه التوسعية وإذا كانت أسوار عكا قد شكلت سدا منيعا عجز عن اختراقه فتحطمت أحلامه أمامه في الشرق فإن شوارع موسكو المهجورة من الناس والمؤن والطعام ١٨١٢م هي الأخرى قد مثلت جحيما لا يطاق لقواته التي لم تقم لها قائمة بعدها حيث تعرضت لهزائم مدوية كان آخرها معركة (واترلو) وذلك على الرغم من محاولاته المستميتة لاستعادة مجده السابق لتتحطم آماله وأحلامه في الغرب أيضا ولينتهي المطاف برجل الحروب النابليونية إلى الأسر والنفي ثم الموت بمنفاه ولكن وعلى الرغم من كثرة أعداء هذا الرجل في ذلك الوقت والذين كانوا يكرهونه بشدة إلا أنهم كانوا يكنون له عظيم الاحترام فعندما سئل أمير البحر الدوق (ويلينغتون) قائد الإنجليز في معركة (واترلو) الشهيرة عن أعظم جنرال في وقته فأجاب على الفور قائلا:"(إن أعظمهم في الماضي والحاضر والمستقبل وكل وقت هو نابليون بونابرت)"،

۩"(تعليق المؤلف)"

المصادر والمراجع

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار	عبد الرحمن الجبرتي
(٢) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس	عبد الرحمن الجبرتي
(٣) المختار في تاريخ الجبرتي	محمد قنديل البقلي
(٤) تحفة الناظرين	الشيخ عبد الله الشرقاوى
(٥) الثورة الفرنسية	لويس عوض
(٦) نابليون بونابرت	يوسف سعد يوسف
(٧) نابليون الأول أو النسر الأعظم	يوسف البستانى
(٨) مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر	تأليف:جوزيف مارى مواريه ترجمة وتقديم:كاميليا صبحي
(٩) المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني	د٠عصام محمد شبارو
(١٠) النهضة العربية الحديثة	عبد العزيز نوار
(١١) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر	عبد الرحمن الرافعى
(١٢) الحملة الفرنسية على مصر:(نحتفل أولا نحتفل)	محمد عوده
(١٣) مصر والحملة الفرنسية	محمد سعيد العشماوى
(١٤) قصة أحمد باشا الجزار بين مصر والشام وحوادثه مع نابليون بونابرت	تأليف:أحمد حيدر الشهابي إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين
(١٥) الحياة الثقافية في فلسطين ولبنان في عهد أحمد باشا الجزار	د٠ أسامة أبو نحل
(١٦) سجلات المحاكم الشرعية في حماة	
(١٧) قالت الصورة	عبد الهادي حماد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٠ / ١٧٥٥٨

طبع بدار الوثائق الجامعية

شبين الكوم البر الشرقي ش مكي من محمود شاهين

ت: ٠٤٨/٢٣٢٣٦٩٦

لقد أنستنى عكا عظمتى لو سقطت عكا لغيرت وجه العالم لقد كان حظ الشرق محصورا فى هذه المدينة الصغيرة

نابليون بونابرت

